سورة الرحمن

obeikandl.com

obeikandl.com

عرض ودراسة

نزلت هذه السورة الكريمة ـ فى قول الجمهور ـ بمكة قبل الهجرة ، وعدد آياتها ثمان وسبعون ، وفى حديث نبوى عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لكل شىء عروس ، وعروس القرآن سورة الرَّحمن» . وهو علَمٌ أو اسم اختصَّت به وحدَها ، لأنها أُنْزِلَتْ بياناً مفصَّلا للرحمة الإلهية بالإنسان وما أَسْبغه عليه ربّه من النِّعَم الدُّنْيَوِيَّة والأُخروِيَّة والمادِّيَّة والرُّوحِيَّة . وقد بدأها جلَّ شأنُه بالنعمة الروحية الكبرى التى أضفاها على الإنسان بإنزاله القرآن فى أرفع صورة للكتب السماوية ، وأضاف إليها نعمة خَلْقه وما رُكِّب فى ملكاته من العلم والتعلم . ثم بَيَّن أنواع النعم الدنيوية المتصلة بالكَوْن والمرتبطة بالحياة الإنسانية وما ينْبغى أن يُكفَل لها من العدالة والرزق وأسباب العيش والانتفاع بكل ما فى البر والبحر . ثم ذكر فناءَ العالم وما يعقبه من البعث والحساب . وفصَّل القول فى عقاب الكافرين وما ينتظرهم من عذاب النار . وكأنه يريد أن يقضى فيهم على نوازع الكفر وآثامه ويردهم إلى سواء السبيل . رحمة بهم وعطفاً عليهم ، ومن أجل ذلك كان تصوير السورة لعذاب الجحيم داخلا فى آلاء الله ونعمه . وصوَّرتْ فى تفصيل أكثر سعةً ما ينتظر المؤمنين المتقين من نعيم فى فراديس الجنان .

وفى بعض الروايات أنها لما نزلت وحفِظَها بعض الصَّحابة نُدب عبد الله بن مسعود نفسه لتلاوتها جهْرا عند مقام إبراهيم بالكعبة ، حتى يُبْلغها قريشاً ، لعل منها من يُنيب إلى الله ورسوله حين تقرع سمعه ، ومضى يتلوها رافعاً بها صوته . فتجمَّع عليه بعض أعداء الدين الحنيف وضربوه حتى

تركوا آثارًا بوجهه . وفى الترمذى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : « لقد قرأتها على الجن . فكانوا أحسن مردودًا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : (فبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ) قالوا : لا بشىء من نعمك ربَّنا نكذِّب ، فَلَكَ الحَمْدُ » .

وقد تكررت آية (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) بإزاء النِّعم فى السورة حتى بلغت إحدى وثلاثين مرة ، وهو تكرارٌ كان حريًّا بأن يلفت الصَّحابةَ ، رِضوان الله عليهم ، كما لاحظ ذلك الرسولُ صلى الله عليه وسلم ، فإما أن يردِّدوا عبارة كعبارة الجن ، وإما أن يردِّدوا الآية نفسها مع كل نعْمة قائلين (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) . وكأنَّ فى هذه السورة المكية الكريمة طواعيةً لأن تردِّد جماعةٌ تلك الآية مع من يتْلوها ، حتى تخرق سمْع من فى آذانهم وَقْر ، وعلى قلوبهم أكنَّة ، من مشركى قريش وغيرهم. ويلقانا هذا التكرار فى سور مكية أُخرى ، من ذلك ما نقرؤه فى سورة الشعراء بعقب بعض سنن الخلق وقصص الأنبياء : موسى وإبراهيم ونوح وهُود وصالح ولوط وشُعيْب من ترداد قوله تعالى : (إنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً ومَا كَانَ أكثرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وإنَّ رَبَّكَ لَهُو العَزِيزُ الرَّحِيمُ) وكذلك ترددُ آية : (فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ) فى قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب بنفس السورة . ومن ذلك ما نقرؤه فى سورة القمر من ترداد آية : (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ) بعد بيان ما نزل من العذاب بقوم نوح وبعاد وبثمود . أما قوم لوط فترددت مع الانتقام من عصيانهم آية : (فَذُوقُوا عذَابِى ونُذرِ) . وتردَّدتْ فى السورة أيضا آية : (ولَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) . ومن ذلك ما نقرؤه

فى سورة المرسلات من ترداد آية : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِين) عشر مرات بعقب تفصيل القول عن المعاد وجزاء الكافرين وثواب المتقين . أو قل كأن هذه الآيات المردَّدة فى سورها مواضع لترجيع ما قبلها . ومعروف أن القرآن الكريم دعا فى قوة إلى ترتيله فى مثل قوله عزَّ ذكره : (ورَتِّلِ الْقُرْآنَ ترْتِيلاً) وترتيلُهُ قراءته جهرًا فى تؤدة بحيث تستبين الحروف وتتضح الحركات ، حتى يتمكن القارئ ومن يسمعه من التأمل فى معانى الآيات . وما زال الأسلاف يدرسون هذا الترتيل وما يتصل به من مخارج الحروف وصفاتها كالجهر والهمس والشدة واللين حتى وضعوا فى ذلك علم التجويد . وفى الحديث : « زَيِّنوا القرآن بأصواتكم » . واشتهر أبو موسى الأشعرى بجمال صوته فى قراءة الذكر الحكيم حتى قال فيه الرسول : « لقد أُعطِى مزمارًا من مزامير آل داود » . وفى سنن ابن ماجه عن الأوزاعى مرفوعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَلَّهُ أشدُّ أَذَناً (استماعاً) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب القَيْنة إلى قَيْنته » . ولمثل هذا الحديث وأحاديث مشابهة أباح جماعة من الفقهاء قراءة القرآن بالألحان ما لم يخرج القارئ ، بتمطيط الحروف ولَفِّ بعضها فى بعض وبإشباع الحركات ومدِّها ، عن الحد المقبول عند مهرة القُرَّاء . وإنما استطردنا إلى بيان ذلك لندلَّ على ما دفع إليه القرآن والحديث من ترتيل كتاب الله وتزيينه بالصوت الحسن وترداد بعض آياته ، بل إنها لتتردَّد فعلا على نحو ما ترددت آية (فبِأَىِّ آلَاءِ ربِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فى هذه السورة إحدى وثلاثين مرة . وكأنما يراد الاتساع بها فى الترداد والإرنان والارتفاع بالصوت والترنم به ، استشعارًا لرحمة الله وجلاله ، وترغيباً للإنسان كى يتمثل فى ضميره

نِعَم ربِّه الدنيوية والأخروية ، وحتى يستنقذ نفسه من العذاب الأليم وينال ما يجْدر به من الثواب والنعيم . وقد روى الرواةُ أن قيس بن عاصم أحد سادة بنى تميم وبلغائهم المفوَّهين حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة من قومه قال له : « اتْلُ علىَّ مما أُنْزل عليك (من القرآن) فقرأ عليه سورة (الرَّحْمٰنِ) فقال له : أَعِدْها ، فأَعادها الرسول عليه ثلاثاً ، فقال وقد بلغ منه الإعجاب والاستحسان الغاية : والله إن له لطُلاوة ، وإن عليه لحَلاوة ، وإن أسفله لمُغدِق (كثير المياه) وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

(الرَّحْمٰنُ) :

اختلف السَّلَف فى لفظة الرحمن هل هى مشتقَّةٌ أو غير مشتقة ، فقيل إنه لا اشتقاق لها بل هى من الأسماء المختصّة به سبحانه ، واستدلَّ أصحاب هذا القولِ بأنها لو كانت مشتقة من الرحمة لاتصلت بذكر المرحوم فجاز أن يقال الله رحْمٰن بعباده ، كما يقالُ رحيمٌ بعباده . وذهب الجمهور إلى أنها صيغة للمبالغة مشتقة من الرحمة ، ومعناها ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها ولا شبيه . وهى لا تُثَنَّى ولا تُجْمَعُ كما يثنَّى الرحيم ويجمع . ومما يدل على أنها مشتقة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « قال الله عزَّ وجلَّ : أنا الرحمن خلقت الرَّحِم وشققْتُ لها اسماً من اسمى فمنْ وَصلَها وَصَلْتُهُ ومن قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ ». واشتقاق اللفظة لا يمنع أن تُتَّخذ علَماً على الله عزَّ ذكره ، لا يشركه فيه غيره ، عَلَماً على ذاته ، مثلها مثل لفظة الجلالة (الله) . وقد يدلُّ على ذلك قوله تعالى فى سورة الإسراء : (قل ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحْمٰنَ

أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَه الْأَسْمَاءُ الحسنَى) أى أيًّا من الاسمين العظيمين . وقد يدل عليه أيضاً قوله عزَّ شأنه فى سورة الفرقان : (وإِذَا قِيل لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قالُوا وما الرَّحمَٰنُ) وكأنهم لم يكونوا يعرفون هذا الاسم للذات العلية قبل سماعهم له فى القرآن الكريم . وسواءٌ أكان لفظ الرحمن اسماً موضوعاً لربِّ الكائنات أم وصْفاً له مشتقًّا للمبالغة من الرحمة فإنه مختصٌّ به لا يجوز أن يسمَّى أو يوصف به غيره . ولم يعادل القرآنُ باسم (الله) اسما أو صفةً سواه على نحو ما تصوَّر ذلك الآيةُ الأولى آنفةُ الذكر . وهو يقابل فى القرآن الصفات الدالة على قدرة الله وشدة انتقامه الذى يصبُّه على العصاة قساة القلوب من مثل القويِّ ، القَهَّار ، الجبَّار ، شديد العذاب ، شديد العقاب . وتقترن هذه الصفات فى كل جانب من جوانب القرآن بصفات الرحمة والعفو والمغفرة للتائبين النادمين . ولا نبالغ إذا قلنا إن صفة الرحمة وما يتصل بها من الألفاظ الدالّة عليها تُعدّ أبرز صفات الله فى الذكر الحكيم . ومعروف أن كل سورة من سور القرآن تفتتح بالبسملة أو بسم الله الرحمن الرحيم ، وقد وُضِعت الرحمة والمغفرة دائماً بجوار العذاب والعقاب . وينبغى أن نعرف أن العقاب والعذاب لا يأتيان لذاتهما وإنما لتخويف العاصى حتى ينجو بنفسه ، ويستأصل منها جذور الشر والعصيان .

وقد ترددت صفات الرحمة ومشتقاتها فى الذكر الحكيم مئات المرات فى حين لم يُذْكرْ أن الله عزيز ذو انتقام إلا فى أربع آيات : فى سورة آل عمران : (إِنَّ الَّذِين كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) ، وفى سورة المائِدة : (وَمَنْ عاد فَيَنْتَقِم اللهُ مِنْهُ واللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) ، وفى سورة إبراهيم : (إِنَّ الله عزِيزٌ ذو انْتِقَامٍ) ، وفى سورة الزُّمر : (أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ

ذى انْتِقَامٍ) . وينوِّه القرآن مرارًا برحمة الله وأنها تعمُّ الناس بل تعم الأشياء جميعاً من مثل آية سورة الأنعام : (كَتَبَ ربُّكُمْ علَى نَفْسِه الرَّحْمَةَ) ، وآية سورة الأعراف : (وَرَحْمتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ) . ودعا القرآن دعوةً قوية إلى أنْ لا ييأس أحد من رحمة الله مهما تكن معصيته ومهما تكن جنايته وذنبه ، على نحو ما نقرأ فى سورة الزُّمَر : (قُلْ يَا عِبادِى الَّذِين أَسْرفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقنَطُوا مِنْ رحْمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ جمِيعاً) .

وفى كل ذلك ما يبطل دعوى خصوم الإسلام من أن صفات الله فى القرآن تغلب عليها الشدة والقسوة ومحبة الانتقام فالصحيح أنها تغلب عليها الرحمة والرأفة والمودة والمحبة . وقد أسند الله حبهً لعباده المؤمنين فى أكثر من عشرين آية مثل آية سورة آل عِمْران : (قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) ، وآية سورة المائِدة : (فسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه) . وبذلك كان الإسلامُ دينَ رحمةٍ ومحبة ورأفة بالعباد لا دين جبروت وقسوة وانتقام شديد كما يصفه أعداؤه ، كَبُرتْ كلمةً تَخْرُجُ من أفواههم ، إن يقولون إلا بُهْتَاناً وزُورًا كبيرًا . وفى الصحيح عن أبى هريرة يرفعه : « لما قضى اللهُ الخلقَ كَتَبَ فى كتاب عنده موضوعٍ على العَرْشِ : رَحْمَتى تغلب غضبى » . وتدل كلمة (الرحمن) بصيَاغتها على زنة فَعْلان أنها محيطة بالخلق شاملة لهم ، إذ تأتى صيغة فَعلان دائماً للدلالة على السعة والشمول مثل غضبان للممتلئ غضباً ونَدْمان للممتلئ ندماً ، وقال أبو على الفارسى : الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة لا يختص به الله . والرحمة ، من الإنسان ، عطفٌ وحُنُوّ ؛ ومن الله ، إنعامٌ وإفضالٌ وإحسان . وكأنه جَلَّ شأنه أودع فى طباع الناس الرقة

وتفرَّد هو بالإحسان والإنعام . وقال الغزالى (الرحمن) العطوف على العباد بالإيجاد أولا ، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانياً ، والإسعاد فى الآخرة ثالثاً ، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم (يوم القيامة) رابعاً . وقد وُضِعَ الاسمُ الكريم عَلَماً على هذه السورة ومُفْتَتَحاً لها لاشتمالها على نعم الله الدنيوية والأخروية ولتعدادها إياها واتصال ذلك مباشرة بصفات (الرحمن) وما يقترن بها من الإحسان واللطف والرأفة والبر والإنعام ، وكأنها الأسباب الواصلة بين الله ذى الجلال وبين عباده ، من أجلها خلق الإنسان ومكّن له فى الأرض أسباب الرزق ، وسخَّر له الكون ، وأرسل إليه الرُّسُلَ ، وأنزل عليهم الكتب . ومن أجلها وضع له ما يهديه إلى العمل الصالح وإلى سعادته فى دنياه وآخرته . والسورة تبسط ذلك بسطاً واسعاً ، بما تصوِّر من نعم الله وآلائه ووجوه إحسانه ، وكأن كل نعمة إنما هى رحمة مُهْدَاةٌ إلى الناس جميعاً .

(عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ) :

هذه أول نعمة استهلَّت بها السورة النعمَ الإلهية على الإنسان ، وفى تقديمها على سواها من النعم ما يدل على أنها أعظمها شأناً وأسماها مكانة ، وهى نعمة مزدوجة ، فقد منح الله الإنسان ملكة العلم والتعلم ، وبهذه الملكة كوَّن حضارته وثقافته ومعرفته وكل ما اتصل بذلك من العلوم والفنون . ولولا هذه الملكة لكان الإنسان مثل بقية الحيوانات ولكانت حاله لا تفترق فى شىء عن حال السباع وغير السباع ، ولكان يعيش مثلها فى الغابات فلا علماء ولا أدباء ولا شعراء ولا أنبياء يخرجونه من الظلمات إلى النور ،

ويوجهونه ليحيا فى دنياه حياة كريمة يصلونها بحياة أُخرى خالدة يختلف فيها الجزاء باختلاف المعصية والطاعة . والله جلَّ شأنه يُقَيِّد فى الآية نعمة التعليم بتعليم القرآن الكريم الذى أرسل به محمدًا صلى الله عليه وسلم لهداية البشرية ، وليبلغ بها المنزلة الرفيعة من السعادة فى الدنيا والآخرة ، فقد جعله آخر كتبه السماوية وآخر تشريعاته الإلٰهية. وذكر مرارًا أن المؤمنين يؤمنون بما أُنزلَ من قبله على الرسل من الكتب ، وجعل هذا الإيمان جُزْءًا لا يتجزأ من الرسالة المحمدية ، فرسالة الرسول عليه السلام موصولة برسالة الأَنبياءِ من قبله ، أو بعبارة أُخرى شريعته موصولة بالشرائع السابقة ، وفى ذلك يقول عزَّ شأْنه فى سورة المائدة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ . فهو الدين الذى ارتضاه للناس ، وكأنما كان كل دين قبله فى حاجة إلى شيءٍ من التعديل فى بعض فروعه ليلائم الأَجيال الجديدة ، فجاءَ الإسلام بالهدى الكامل الذى يلائم جميع الأَجيال ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مثَلى ومثَلُ الأَنبياءِ من قبلى كمثل رجلٍ بَنَى بيتاً فأَحْسنه وأَجْمله إلا فى موضع لَبِنَةٍ فجعل الناس يطوفون به ، ويَعْجبون له ، ويقولون : هلا وُضِعتْ هذه اللَّبِنَة ؟ فأَنا اللَّبِنةُ وأَنا خاتَمُ النَّبيِّين » فهو خاتم النبيين ، وشريعته خاتمة الشرائع ، شريعة ترشد إلى جميع وجوه الخير وجميع وجود الحق . وعرف ذلك أدق المعرفة نفرمن أهل الكتاب هداهم الله فأَسرعوا إلى الإيمان برسوله ، وتوضِّح ذلك آية سورة الأَعْراف : ﴿ الَّذِين يَتبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَر ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيحرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ

الَّتى كَانَتْ عَلَيْهِمْ) . والآية صريحة فى أن الإسلام يحطُّ عن كواهل أهل الكتاب ما حمَّلهم الإنجيل والتوراة من الإصر أو الثقل ومن الأغلال والقيود. ويضيف الذكر الحكيم إلى ذلك أنه جاء منقذًا لأصحاب الكتب السماوية السابقة من اختلافاتهم التى سوَّلها لنفوسهم الشيطان والتى أثارت بينهم الإحن والعداوة واليغضاء ، على نحو ما تصوِّر ذلك آية سورة النَّحْل : (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُممٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُو وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) . إنه بيان قاطع لمِراء أهل الكتاب وجِدَالهم فى حقائق الدين جدالا أفضى إلى تنابذهم وتقاطعهم حتى ليكفر بعضهم بعضاً ، بما أغواهم الشيطان وزيَّن لهم من سوء أعمالهم . والقرآن لا يَسُدُّ ثُلْمَةَ الخلاف بين أهل الكتاب فحسب ، بل أيضاً يصحِّح ما أدخله أحْبار اليهود وعلماءُ الديانات على الكتب السماوية السالفة من تحريفات ، على نحو ما توضِّح ذلك آية سورة البَقرة : (فَوَيْلٌ لِلَّذِين يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذَا مِن عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُم مِمَّا يَكْسِبُونَ). وقد وبَّخ القرآن اليهود مرارًا على إنكارهم أشياءَ فى التوراة وهى مبثوثة فيها بمثل قوله فى سورة المائدة : (يَأَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ) ، كما وَبَّخهم على ادِّعائهم أشياءَ فى التوراة ، والتوراة منها بَراء ، بمثل قوله فى سورة آل عِمْرَان : (قُل فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). والقرآن بذلك كله يُصْلح الفساد الذى دخل على نصوص الكتب السماوية ، كما يصلح نفوس أهلها بما يرفع من الخلافات الناشبة

بينهم ، ويُتمِّم النور الذى جاءت به الرسالات الإلهية السابقة هداية ورشادًا للناس . وبحقٍّ دعاه الله (شِفَاءٌ ورحمة) فهو شفاء للنفوس الكليمة من جروحها الدفينة وبلسم لآلامها وأوجاعها ودواء لا يماثله دواء . ثم هو رحمة بالناس ، رحمة لإنقاذهم من ضلالهم وخلافاتهم وافتراءاتهم على الرسل ، ورحمة بما دعا إليه من الحق وسعادة الجماعة الإنسانية وتعاون أفرادها على البِرِّ والخير والعدل والإحسان واجتناب الآثام والبغى والظلم والعدوان . إنه أعظم شريعة أُنْزلت إلى البشر، أنزلها الله على رسوله لتكون نعمته النهائية على البشرية فى تصوير الأصول الاعتقادية وتحقيق الكمال الإنسانى . وبذلك نفهم قوله تعالى فى سورة التوبة : (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) ، وقوله فى سورة آل عِمْران : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ) ، وقوله فى نفس السورة : (ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) . فهو الدين النهائى الذى اختاره الله للناس جميعاً ، حتى يجتمعوا على دين سماوىٍّ واحد ، مصدقٍ للديانات السماوية السابقة ، ومصحِّح لها ، ومبعد عنها كل تحريف وكل زيف وإضافة لم تأْت من عند الله. ويؤكد القرآن هذا المعنى مرارًا ، فقد أُرسل نوح وهود وشعيب كلٌّ إلى قومه وكذلك أُرسل موسى وعيسى ، يقول عزَّ سلطانه عن موسى فى سورة إبراهيم : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور) ، ويقول عن عيسى فى سورة آل عِمْران : (ورَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيل أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) . فكل الرسل إنما أُرسلوا مبشِّرين ومنذرين إلى أقوامهم ، أما محمد صلَّى الله عليه وسلم فإنه لم يرسل إلى قومه فى الجزيرة العربية وحدهم ، بل أرسل إلى الناس جميعاً على نحو ما تصور ذلك آية سورة

سبأ : (وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) . ومع ذلك فقد ترك القرآن لأهل الديانات حرية الاختيار بين الإسلام وبين دياناتهم تسامحاً كريماً ، قائلا كما جاء فى آية سورة البقرة إنه : (لَا إِكْرَاه فِى الدِّينِ) . وهى نظرة رحيمة ، بل إن القرآن ليؤكد أن الاختلاف فى الدِّين سنة من سنن الوجود ، إذ يقول جَلّ شأنه فى سورة هود : (ولَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) والله يسجل أن الناس سيظلون مختلفين ، ولو شاء خلاف ذلك لكان ، ولكن حكمته اقتضت أن يظل الخلاف بينهم قائماً ، وإنه ليقول للرسول عليه السلام فى سورة يونس : (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَآمَنَ منْ فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يكُونُوا مُؤْمِنِين) . ومما لا ريب فيه أن القرآن دعا دعوة قوية إلى الوِئام بين الناس حتى يَرْأبوا ما بينهم من خلاف بقدر المستطاع . ومن أهم ما دعا إليه إزالة جميع الفوارق العنصرية والإقليمية ، وأن تكون أعمال الناس موجهة دائماً إلى البرِّ والخير ، وأن يقمعوا ما فى دخائلهم من الغرائز السيئة ، وأن يسموا بنفوسهم ويرتفعوا عن كل نقيصة ودنية وكل مأرب من المآرب الحقيرة ، وأن يتعاطفوا مع الفقير والبائس المسكين ، مما جعل للفضائل والمُثُل الأخلاقية الرفيعة منزلة عظيمة فى قلب كل مسلم . وبحقٍّ يقول عَزَّ ذكره : (عَلَّم القُرْآنَ) إنه تعاليم ومبادئ سامية فى العقيدة وفى العمل وفى السلوك الفردى والجماعى ، تعاليم حرص على أن تُتعَلَّم ، ودفع لكى تزدهر من حولها كافَّةُ العلوم ، ولولا القرآنُ وتعاليمه ما ازدهرتْ علوم التفسير واللغة والعربية وعلوم الفقه وأصوله وعلوم التاريخ التى نشأت أولا حول قصصه وسيرة رسوله ، ولا علوم المواقيت والفلك ، ولا العلوم الكونية كالطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان وعلم النبات وعلم

الجغرافيا وعلم طبقات الأرض وعلم المعادن ، فقد دعا إلى الوقوف على كل ذلك بمثل قوله فى سورة يونس : (قُلِ انْظُرُوا ماذَا فِى السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ) . وبالاختصار كل ما نشأ عند المسلمين من علم وتفكير فلسفى فأصله ومردّه إلى القرآن والفِقْه به ، وأيضاً كل ما نشأ عندهم من فنون ومن عناية بالمنطق والبلاغة والأخلاق والاجتماع . وقد نَصَّ القرآن على أن به آيات متشابهات يُشْكل معناها وينبهم المراد منها ، وصوَّرَ ذلك قائلا فى سورة آل عمران : (هُوَ الَّذِى أَنْزلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَه مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يعْلَم تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ والرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يقُولُونَ آمنَّا بِه كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنَا وما يذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ) . والآيات المحكمات هى التى تدل دلالة محدَّدة على أُصُول العقيدة والعمل الصالح ، وهى واضحة صريحة لا تحتمل سوى معنى واحد ، وهى لذلك أُمُّ الكتاب التى تُحْمَلُ عليها الآيات المتشابهات . وللعلماء فى تفسير المتشابهات آراءٌ كثيرة ، فمن قائل إنها المنسوخات والأقْسام ، ومن قائل إنها ما تفيد تعارضاً بوجه من الوجوه مع غيرها من الآيات ، ومن قائل إنها ما احتمل من التأويل أَوْجُهاً وإن المحكم ما احتمل معنى واحداً . ومن قائل إن المتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة وغيره من أمور الغيب ، ومن قائل إنه آيات الصفات المجازية بالقياس إلى الله فى مثل آية سورة طه : (الرَّحْمٰنُ علَى العَرْشِ اسْتَوى) ومثل آية سورة الفتح : (يدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) وبالقياس إلى الأنبياء فى مثل آية سورة النِّساء : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مرْيَم رسُولُ اللهِ وَكَلِمتُهُ أَلْقَاها إِلَى مَرْيمَ ورُوحٌ مِنْهُ) . ولعل فى كل ذلك ما يوضح لنا الرأيين

المتقابلين فى الآية الكريمة ، فقد ذهب بعض العلماء إلى أن كلمة (والرَّاسِخُون فِى العِلْمِ) ابتداء كلام مقطوع عما قبله ، وبذلك لا يعلم المتشابهات سوى الله ويراد بها الغيب الذى لا يعلمه غيره ، ثم أثنى الله بعد ذلك على الراسخين فى العلم بأنهم (يَقُولُونَ آمنَّا بِهِ) . وذهب آخرون إلى أن كلمة (والرَّاسِخُون فِى العِلْمِ) معطوفة على لفظ الجلالة ، وبذلك يكون المراد بالمتشابهات النوع الذى لا يستأثر الله فيه بعلمه والذى يَشْركه فيه العلماء الراسخون المتثبتون بمعارضة آياته على الآيات المحكمة والعارفون بوجوه كلام العرب ومناحيه . وقد عبرت الآية عن ذلك بلسانهم إذ يقولون : (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنَا) . والآية بذلك تضع المبدأ الأساسى لتفسير القرآن وهو عَرْض آياته بعضها على بعض حتى يتضح تفسيرها وتتضح دلالاتها ، وحتى يتم العلم بها علماً كاملا . وهو علم شارك فيه الرسول عليه السلام ، فقد فسَّر بعض آى الذكر الحكيم عملا بقوله تعالى فى سورة النَّحْل : (وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّل إِلَيْهِمْ) ، فكان الصحابة كلما سألوه عن آية فَسَّرها لهم . وبقيت من تفسيراته بقية حمَلها الطبرى وغيره من المفسرين ، وينبغى أن يضعها كل مفسر نُصْب عينيه حتى يقف على معانى القرآن وقوفاً دقيقاً ، وهى معانٍ تُشْبع حاجات النفوس والقلوب والعقول وتسدّ مطالب الأفراد والجماعات الدنيوية والأخروية . ولعل فى ذلك ما يفسر من بعض الوجوه سرعة انتشار الإسلام قديماً وثباته ورسوخه واستمراره على الرغم من كل صور العدوان التى سوَّلتها لأعدائه نفوسهم الخبيثة لسبب طبيعى ، وهو أنه الدِّين الذى اختاره الله للناس كافة بحيث يلائم طبائعهم وفطرتهم التى فطرهم الله عليها مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم ونزعاتهم وأطوارهم الحضارية .

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ) :

كلمة الإنسان فى الآية الكريمة مطلقة غير مقيَّدة ، وهى بذلك تتناول جميع الناس ، وقيل المراد آدم أبو البشر . والأولى أن نأخذ بالمعنى العام ، لأن الله عزَّ سلطانه يتحدث فى السورة عن نعمه على الناس ، وما دام من الممكن أن تشملهم النعمة جميعاً فأولى أن تفهم الآية على عمومها ، وأن يراد بخلق الإنسان الخلق الذى يبصره الناس فى أنفسهم ، أما خلق آدم من طين فذلك خلق لم يعلموه إلا بالسماع والخبر عن الأنبياء والمرسلين ، وستُعْنَى آيةٌ مقبلة بتصويره . وقد ذكر الله خلق الإنسان فى القرآن بصور مختلفة : مطلقة ومقيدة ، وكان أول ما أنزل على رسوله : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) والعلق القطع الصغيرة من الدم التى تتحول إليها النطف . ويصوِّر الله أطوار الإنسان ، أو قل أطوار خلقه فى الرحم ، وكيف أنه يتطور به من طور إلى طور حتى يصبح إنساناً سَوِيًّا ، كما قال فى سورة « المؤمنون » : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ علَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين) . والله يذكر ذلك ليتدبر الإنسان نعمته عليه فى الخلق والإنشاء والتكوين والتدرج به من حال إلى حال فى الرحم . ثم جعل بعد ذلك يتعهده بالعناية وبرسالاته السماوية حتى كانت هذه الرسالة النبوية الأخيرة التى اختارها له ملائمة أدق الملاءمة لفطرته . ودائماً يذكِّر القرآن الإنسان بخلق الله وإبداعه ، وأنه حرىٌ به أن يشكر ربه على أنعمه

وأن يتخلص من غروره أمام موجده ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الانفطار : (يَـأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) وتسوية الإنسان فى الخلق جعله سويًّا منتظم الأعضاء مكتمل القوى النفسية والجسمية وقوى الحواس الظاهرة والباطنة . وعَدْله جعله معتدلا متناسب الخلق من غير تفاوت فى أعضائه ولا اضطراب . وتصويره : إيجاده فى صور مختلفة من الذكورة والأنوثة ومن الطول والقصر ومن الحسن وأنواعه على حسب مقتضى حكمته ومشيئته . ودائماً يعرض القرآن على الإنسان نعمة خلقه وإبداعه الدالَّيْن على القدرة الإلهية والحكمة الربانية ، حتى يرجع إلى ربه معترفاً شاكرًا آلاءه عليه . ومن أعظم هذه الآلاء فى خلقه ما صوره الله فى سورة البلد : (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ولِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وهدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن) . وربما كانت العينان أعظم الحواس جميعاً ، إذ بهما نبصر ما حولنا فى الكون ونرى روعة صنع الله فى الوجود ، وحرىٌّ بكل ذى عينين أن يؤمن بخالقه لما يرى من آياته الكونية الدالة على قدرته وما أودعت الكائنات من عجائب وغرائب فى الخلق والتكوين والتركيب . وبجانب نعمة البصر نعمة الكلام التى يؤديها اللسان والشفتان ، وهى النعمة التى أتاحت للإنسان كل ما اكتشفه من الكنوز الروحية والعقلية . وقد هدى الله الإنسان النَّجْدَين ، وهما الطريقان المصعدان العاليان ، ويراد بهما فى الآية طريقا الخير والشر ، إذ نصب الله له فيهما من الأعلام ما يميز بينهما ليعرف الطريق الضار المهلك فيبتعد عنه ، ويسلك الطريق النافع المثمر بما أعطاه من العقل الذى يفرِّق به بين ما يلذُّه ويؤلمه ، وما يؤنسه ويوحشه ، وما يسالمه ويعاديه . وإنها لنعم فى خلق الإنسان لا يحيط بها عَدٌّ ولا إحصاءٌ ولا وصف ، نعم فى صُنْعه وتركيبه

وصورته وهيئته ، ونعم فيما أعطاه الله من الحواسّ ، ونعم فيما أفاض عليه من العقل والتمييز بين الخير والشر والنافع والضار والمكروه والسار .

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) :

البيان الكلام وطبيعى أن يكون من علَّم الإنسان عالماً ، إذ لو كان غير موصوف بصفة العلم ما استطاع أن يعلِّمه ، بل أولى أن يكون أكثر منه علماً ، وإلا ما أمكنه منحه لسواه ، إذ لا بد من أن يملكه حتى يمنحه . ونفَس خَلْقه الإنسان يدل على علمه وبصره بما خلق لِما أحكم فى تركيبه وأتقن فى خلقه . ولا ريب فى أن العلم كمال فى المخلوق المحدث ، وكل كمال فيه إنما يستمده من ربه ، وطبيعى أن يكون به أَحْرَى . ومعروف أن كل كمال فى المعلول إنما ينبثّ فيه من العِلَّة . وقد ذكر القرآن غير مرة نعمة العلم التى أسبغها الله على الإنسان ودعاه لكى يَفْقهه ويتقنه . وكانت أول آيات نزلت على الرسول عليه السلام – كما مرَّ بنا – آيات سورة العلق : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وربُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) . والتعليم بالقلم مطلق غير مقيد بنوع خاص من أنواع العلم وإن عرض لوسيلته ، وهى القلم والخطّ به والتدوين . وطبيعى أن يشمل التعليم الكتب السماوية وما تحمل من الهداية للبشرية . ومعروف أن العلم ضروب فهو تصور وتصديق أو إدراك وحكم ، وهو نظرى وعملى ، وهو سمعى وتجريبى . وطرقه أو أدواته لا تنحصر ، فمنه ما يُدْرَكُ بالحواس ، ومنه ما يُدرك بالوجدان ، ومنه ما يدرك بالعقل عن طريق التجربة أو عن طريق الاستنباط ، ومنه ما يدرك بالخبر الصادق . ولفضيلة العلم وشرف وسائله

أقسم الله بالقلم فى سورة «ن» قائلا : (وَالْقَلَمِ وَما يَسطُرُونَ)، كما أقسم بالكتاب وما يكتب فيه من الرُّقوق فى قوله فى سورة الطور : (وكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِى رقٍّ مَنْشُورٍ) ، وأمر رسوله أن يضرع إليه مستزيدًا منه ومن نوره على نحو ما جاء فى سورة طه : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً) . وأسبغ على العلماء تشريفاً لا يماثله تشريف ، إذ أشركهم معه ومع الملائكة فى الشهادة على أعظم حقيقة وهى التوحيد عمود الدين وقطبه ، إذ يقول فى سورة آل عِمْران : (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ والْملاَئِكَةُ وأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ. لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحكِيمُ) ؛ وفى الحديث : «إنَّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» ، و «إن العلماء هم ورثة الأنبياء» ، وعنه عليه السلام أنه قال : «إن الملائكة تضع للعلماء أجنحتها وتظلُّهم بها» . وتؤكد آية سورة التوبة هذا الحض الواسع على العلم والتعلم ، إذ يقول جَلَّ شأنه : (فَلَوْلَا نَفرَ مِنْ كُلِّ فِرْقةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيتَفَقَّهوا فِى الدِّينِ) ، وكأنه يندب إلى التفقه فى شئون الدين كلَّ مسلم حتى يعرف الأوامر والنواهى الشرعية والعبادات ووجوه المعاملات ، وحتى يعبد الله حق عبادته فينيب إليه ويخشاه ويتوكل عليه . والرسول عليه السلام هو المعلم الأول لأمته وكان يرسل فى القبائل من يعلمهم شئون دينهم ، حتى إذا رُفعت روحه إلى الرفيق الأعلى تحول أصحابه إلى فقهاء يرشدون الناس. ونما هذا الصنيع نموًّا واسعاً ، فإذا الدين الحنيف يُدْرَسُ فى كل حاضرة ، للمسلمين وكل ما اتصل به من تفسير للقرآن ومن تشريع وحديث نبوى ، وفتح ذراعيه لكل ما لدى الأمم المستعربة من العلوم وألوان الفكر ، فإذا الأمة العربية تصبح سريعاً من أمم العلم والحضارة . وكل ذلك بفضل

هذه الدعوة الواسعة إلى العلم والتعلم ، حتى ليمكن أن نسمى الإسلام دين العلم والمعرفة ، المعرفة المقرِّبة إلى الله ، مما يتصل بدعوة الدين الحنيف ، والباعثة على الانتفاع بكل ما فى الكون مما يتصل بالعلوم والفكر الإنسانى عامة . والبيان الذى علمه الله الإنسان والذى تشير إليه الآية الكريمة يشمل تمكين الإنسان من إعرابه عما يداخله ويخالجه من الخواطر والأحاسيس والمشاعر ، وتمكينه أيضاً من إفهام غيره والفهم عنه ، وهو الذى يدور عليه العلم والتعليم . والأساس الأول للبيان هو اللغات التى بها يتكلم الناس وما تتضمنه ألفاظها من المعانى والمعارف والعلوم وكل ما كان منها وما يكون . والله يمتنُّ على عباده بأنه أودعهم ملكات العلم الذى هيَّأهم للترقى من درجة إلى درجة أخرى حتى نالوا ما حصلوا عليه من حضارة ومدنية . ويدخل فى البيان الذى أنعم الله على الإنسان بتعلمه القرآنُ الكريمُ ، وقد سمَّاه فى سورة آل عِمْران بياناً إذ يقول : (هذَا بيَانٌ لِلنَّاسِ وهُدًى وموْعِظةٌ لِلْمُتَّقِين) وهو بلا ريب أرفع صور البيان ، صور لا يستطيعها البشر ، مهما أُوتوا من البلاغة واللَّسَن والفصاحة وحسن البيان ، وفى ذلك يقول عزَّ سلطانه فى سورة الإسراء : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ والْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) ، ويقول فى سورة هُود : (قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرياتٍ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِل بِعِلْمِ اللهِ وأَنْ لَا إِلٰهَ إِلا هُو فَهلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) . وقد عجز العرب عن معارضة بيانه عجزًا تامًّا ، مع دعوته لهم صباحَ مساء إلى معارضته ومحاكاته إن استطاعوا ، وكل يوم يزداد تحدياً لهم ، وكل يوم يزدادون عجزًا مع وصف القرآن لهم

ببلاغة المنطق وفصاحة اللسان من مثل قوله فى سورة البقرة : (ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحياةِ الدنْيَا) ، وقوله فى سورة الأحْزاب : (فَإذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ) . فدَلَّ ذلك على عجزهم عن محاكاة القرآن الكريم ، مع سهولة الكلام عليهم ، ومع جودة بيانهم ، وقد اندفعوا يغمدون ألسنتهم ويجرِّدون سيوفهم ، غير أن المعجزة البيانية اسْتَعْلَتْ وانتشرت أضواؤُها فى الجزيرة ، وسرعان ما أخذت تعم الدروب والمسالك إلى أواسط آسيا شرقاً والمحيط الأطلسى غرباً . وكل ذلك بفضل بيان القرآن المعجز وما حمل للناس من هداية فى الداريْن . ولا ريب فى أن البيان أعظم نعمة أضفاها الله على الإنسان ، إذ كانت به الرسالة المحمدية وبقية الرسالات ، وبه كانت العلوم والمعارف وكانت المدنيات والحضارات .

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) :

الحُسْبان مصدر بمعنى الحساب كالغُفْران بمعنى المغفرة . ومعنى الآية أن الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر دقيق ونظام محكم دال على قدرة الله ، وأنه أودع الكواكب والأفلاك تدبيرًا متقناً من لدن حكيم عليم ، تدبيرًا يقوم على قوانين ، كل شىء يسير بمقتضاها ومقتضى الحكمة الإلٰهية ، فكل ما فى الكون يسير وفق قوانين محكمة ، قوانين قائمة فى تركيبه ، قوانين تدلّ على ما انبثّ فيه من نظام عجيب ، وهو نظام يشدُّ بعضه بعضاً لغايات إلٰهية مرسومة . وإن فى مسيرة الشمس والقمر التى لا تخطئُ نهارًا ولا ليلا ما يدلّ على أن وراءهما قوة عليا تسيطر على الكوكبين ، وتهديهما فى

مسيرتهما ، إذ يسيران فى طريق ثابت دون أى اختلال أو اضطراب ، بل دائماً اتساق والتئام وما يشهد بأن هناك إلهاً مدبرًا يشرف على النظام الكونى جميعه إشرافاً يتيح له الإحكام والاستقرار . ويلفت القرآن مرارًا إلى أن الكون جميعه بشمسه وقمره وأفلاكه مسخَّر للإنسان ينتفع به ، والله بذلك يصور كيف كرَّمه ، فالكون كله فى خدمته ، وكل ما فيه خُلق من أجله . فهو الكائن الرفيع الذى يتجلَّى فيه الله بجميع صفاته ، والذى جعله خليفة له فى أرضه ، فإذا هو مشدود إلى التراب ونظره معلق بأنوار السماء ، وفى مقدمتها أنوار الشمس والقمر المسخرة له ولمنافعه . وإن ما يخضعان له من نظام دقيق لآية ما بعدها آية على وجود الكائن الأعلى وحكمته وقدرته ومشيئته ، وأن كلا من الكوكبين مسيَّر إلى مستقرٍّ مقدر له لا يحيد عنه يميناً ولا يسارًا ، وفى ذلك يقول جلَّ شأنه فى سورة يس : (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) . أما الشمس فمعها الفصول التى تنتظم بها حياة الإنسان والحيوان والزروع ومعها النهار الذى يضرب فيه الإنسان فى الأرض باحثاً عن وجوه كسبه ومعاشه . وأما القمر فمعه الأهلة ، ومعه منازله التى يسير فيها على مدار كل شهر ، يقول تبارك وتعالى فى سورة البقرة : (يَسْأَلُونَكَ عنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِى مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِّ) ، ويقول فى سورة يونس : (هُو الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُورا وقَدَّرهُ منَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَاب) ، فالغاية العليا من زيادة القمر ونقصانه واحتجابه واكتماله وتنقله فى منازله معرفةُ المواقيت فى العبادات حَجًّا وغير

حجٌ وفى المعاملات وغيرها من مصالح الإنسان . ومع القمر الليل والنوم الذى يستريح فيه الناس من أعباء العمل وأثقاله فى النهار ، وفى ذلك يقول عَزَّ ذكره فى سورة النَّبأ : (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً وجعَلْنا اللَّيْلَ لِبَاساً وجَعَلْنَا النَّهَارَ معَاشاً) ، والسُّبات الموت أى أن النوم كالموت يسكن فيه الجسم ويستريح ، وفى مقابل ذلك جعل الله اليقظة من النوم بعثاً إذ قال فى سورة الفُرْقان : (وجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) . والله جلَّ شأنه يمتنُّ على الإنسان بأن جعل له الليل كاللباس يدخل فيه ، فيسكن ويخلد إلى النوم والراحة والطمأنينة حتى إذا لاحتْ تباشير الصباح سعى فى الأرض لكسب قوته ومعاشه . وبذلك ينظِّم هذان الكوكبان : الشمس والقمر ، حياة الإنسان ، ويوزِّعانها على نهارٍ عاملٍ نشيطٍ وليلٍ ساكنٍ مريحٍ . وهى نعمة ينبغى على الإنسان أن يقدرها حقَّ قدرها ، وهو لا يقدرها بدقة إلا إذا تصور الدنيا لا يعمرها إلا كوكب واحد من الكوكبين ، فكانت ليلاً خالصاً أو نهارًا خالصاً ، إذن لاضطربت شئون الإنسان وما استطاع أن يعيش ولا أن يرقى منازلَ الرقى التى حققها له انقسام اليوم إلى نهار وليل ، ليعمل ويسكن ثم يعود إلى العمل ناشطاً بعد أن أخذ حظه من الراحة والسكون وانقطاع الحركة . وكل ذلك معناه أن حركة الشمس فى فلكها ، وكذلك حركة القمر ، إنما هما من أجل الإنسان ومنفعته ومصلحته ، مِنَّة عليه من خالق الكون وصانعه .

(وَالنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) :

اختلف المفسرون فى المراد بالنجم ، فقيل هو نجم النباتات ، وهو كل

ما ليس له ساق منها مثل البقول والأعشاب ، وقيل هو نجم السماء . أما الشجر فهو كل ما له ساقٌ صَغُرَ أو كَبُرَ من النباتات ، مثل القمح والشعير من الأشجار الصغيرة والنَّخْل والرُّمَّان من الأشجار الكبيرة . والسجود أصله العبادة لله والتذلل ، وهو نوعان : سجود عن اختيار وهو سجود الناس فى مثل آية النجم : (فاسْجُدُوا لِلهِ واعْبُدُوا) . وسجود عن تسخير ، وهو ما ذكره القرآن الكريم من سجود الملائكة والحيوانات والنباتات والجمادات والشمس والقمر والكواكب والنجوم لله ذى الجلال فى مثل آية النَّحْل : (وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰواتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) ، ومثل آية الرعد : (وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ والْأَرضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) . فكل ما فى الكون يسجد لله إما طوعاً عن اختيار ، وإما كرهاً عن تسخير وانقياد ، كناية عن أن هذه الموجودات تنقاد إلى خالقها وأنها خَلْق صانع حكيم . وعلى تفسير النجم بالنبات الذى لا يقوم على ساق قيل معنى سجوده وسجود الشجر أن ظلالهما تفىء وترجع متحولة من جانب إلى جانب ، قبل الزوال وبعده ، منقادة لله مسخرة لما أراده لها من امتداد وانحسار ، وهو قول يستوحى آية النَّحْل : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عنِ الْيَمِينِ والشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلهِ وهُمْ دَاخِرُونَ) ، والمراد بالشىء الجبال والأشجار وأمثالهما مما ترجع ظلاله وتنتقل من حال إلى حال باختلاف ساعات النهار ، وإنها لتسجد لله منقادة لحكمه طائعة لما يصنعه بها قبل انتصاف النهار وبعده أو فى الضحى والعشىّ ، مستجيبة لما يُنْزِله بها من ازدياد وانتقاص وتحول ذات اليمين وذات الشمال ، وكأن سجود النجم والشجر دوران الظل معهما فى أثناء النهار . وقيل سجودهما هو استقبالهما للشمس إذا طلعت ،

ثم ميلهما معها حتى تنكسر ظلالهما . والأولى أن يكون سجودهما عامًّا ويراد به تسخيرهما لله ، وبالتالى تسخيره كلا منهما للإنسان كى ينتفع بهما فى حياته أتَمَّ نفع وأكمله . واختار بعض المفسِّرين أن يكون النجم فى الآية نجم السماء . وقيل سجوده أفوله . وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثماره . وهو تخصيص ويحسن التعميم ، وأن المراد بالسجود الطاعة والانقياد والاستسلام . والآية بذكرها نجوم السماء والشجر أو الأشجار تلتقى بمثل قوله تعالى المذكور آنفاً : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وما فِى الْأَرْضِ) وكأن النجم فى الآية رمز (ما فى السموات) والشجر رمز (ما فى الأرض) فكل ما فى السموات من نجوم وغير نجوم وكل ما فى الأرض من شجر وغير شجر يسجد لله فى خضوع تام له وفى انقياد كامل ليصرِّفه كيف يشاء ، وليبتغى به ما يريد من غاية . وهى غاية تتصل بالإنسان ، فكل ما فى الكون سخَّره له وذلَّله كى ينتفع به فى حياته ، وفى ذلك يقول جلَّ شأنه فى سورة الجاثية : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) ، فكل ما فى السموات وما فى الأرض من أجل الإنسان وفى خدمته ولمنفعته ، مِنَّةً من الله وفَضْلٌ وإنعام .

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ) :

السماء ما يقابل الأرض ، والأصل إطلاقها على كل ما سما وعلا فوق المعمورة . وقد جاءت فى القرآن بمعنى السحاب فى مثل آية سورة الفرقان : (وأَنْزَلْنَا مِن السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) ، وبمعنى المطر فى مثل آية سورة نوح :

(يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) ، وقد يسمَّى النبات سماء . ولكن أكثر ما يُراد بالكلمة فى القرآن ما فوق العالم مما يواجه الأرض فى مدارها . ويصوِّر القرآن كيف أبدع الله السماء إذ يقول فى سورة قَ : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) ، والله جَلَّ شأنه يلفت إلى رَفْع صَرْحها وبنائها بدون عمد وعلائق ، كما يلفت إلى أنه لا يوجد فيها عيب فى الخلق ، وهو ماكنى عنه بالفروج أى الشقوق ، فليس فى خلقها وإبداعها أى خلل ، مع ما يلاحظ من الكواكب التى تزينها كما تزيِّن المصابيح السقوف . ويقول فى سورة الصَّافَّات : (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مارِدٍ) فالسماء الدنيا زُيِّنَتْ بالكواكب والنُّجُوم زينة رائعة . ورَفْع الله السماء فى الآية إشارة إلى أنها مرفوعة بقدرته ولا ممسك لها سواه ، وقد يفيد التعبير بالرفع شرف منزلة السماء على نحو ما يلقانا فى سورة الشَّرْح إذ يقول للرسول عليه السلام : (ورفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) . والله يقصد بذكر السماء ما قصده بذكر الشجر والنجم والقمر والشمس ، فالسماء وكل ما فيها والأرض وكل ما فيها مسخَّر لله ، وهو قد سخَّره للإنسان ، منَّةً عظيمة من مننه الكثيرة . ومعنى قوله جَلَّ وعَزَّ : (وَوَضَعَ المِيزَانَ) أنه وضع العدل ، فالميزان فى الآية هو العدل والتوازن ، وقد شرعه الله فى كل شىء من خَلْقه بحيث جعله قانوناً عامًّا ينتظم به الكون وتنتظم به كائناته وعناصره ،فكل شىء فيه خُلِقَ بالعدل والتوازن فى تكوين أجزائه ، بحيث لا يطغى جزء على جزء ، بل لكل جزءٍ قدره بقسطاس مستقيم لا يميل يميناً ولا شمالاً ، قسطاس محكم أشد ما يكون الإحكام . وعلى نحو ما خُلق كل شىء بالعدل فى تركيب أجزائه ، خُلق أيضاً بالعدل والتوازن بينه وبين نظائره ، بحيث تطَّرد فى

الكون نظم دقيقة لا تُدْخل أى تفاوت بين شىء ونظيره فيما ينبغى أن يسودهما من نَسَقٍ أو قواعد وقوانين . فليس هناك جور ولا ظلم فى خلق الشىء فى ذاته ولا فى خلقه مقروناً إلى غيره من أشباهه . وإذا كان هذا العدل يُطْلَبُ فى مصنوعات المخلوقين بحيث إذا بنوا بَيْتاً طلبوا العدل والتوازن فيه بين حيطانه وأجزائه ، وكذلك إذا صنعوا كرسيًّا أو أى شىء من الصناعات البسيطة طلبوا فيه أن تتعادل أجزاؤه حتى لا يقع فيه الاضطراب والفساد ، فأولى للصانع الأعلى أن يقيم مصنوعاته جميعاً على قانون العدل والتوازن ، فلا تفريط فى شىء ولا إفراط من حيث الكمية أو من حيث الكيفية ، على نحو ما يلاحظ مثلا فى الكفّ وأصابعها فإنها لم تجعل كخُفِّ البعير دون أصابع ، ولا جُعلت الأصابع على قدر واحد ، بل جُعلت متفاوتة فى القدر حتى يُنْتَفع بها ويمكن تعاونها فى القبض على الأشياء والإمساك بها ، وفى ذلك يقول عَزَّ شأنه فى سورة الفُرْقان : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) أى سَوَّاه وعَدله فى صورة مقدرة مقيسة عليه ، تحقق المصلحة المبتغاة له وجودًا وزماناً ومكاناً ، صورة مسوَّاة تهيِّئه للحكمة الإلٰهية العليا ، وهى الهدى ، إما تسخيرًا وانقيادًا ، وإما تعليماً عن طريق الأنبياء والمرسلين ، كما قال تبارك وتعالى فى سورة طه : (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) . وكل ذلك شاهد على أن أساس الخلق جميعه العدل ، فهو القطب الذى يدور عليه الكون ونظامه . وقد أمر الله به فى مصالح الناس وشدَّد فيه ، كما قال جَلَّ ثناؤه فى سورة النَّحْل : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) أى فى القول والفعل والحكم وسياسة الرعية ، وفى ذلك يقول عزَّ ذكره فى سورة النِّساء : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) ، وكَرَّر مرارًا قوله :

(إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) أى الذين يحكمون بين الناس بالقسط والعدل ، وفى الحديث : « إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن » منزلة رفيعة لهم ونعمة كبيرة .

(أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) :

الطغيان تجاوز الحَدِّ والقدر ، واختُلف فى كلمة الميزان الأولى هنا ، فقيل المراد العدل مثلها مثل كلمة الميزان فى الآية السابقة ، ويكون الطغيان بذلك الجور والظلم . وقيل بل الميزان هنا هو الميزان الحقيقى الذى يوزن به ، وبذلك يكون الطغيان فيه الحَيْف فيما يَزِنه ، وفسَّره بعض المفسرين بالزيادة فى الوزن وبعضهم فسره بالبخس والنقص ، ويمكن أن يشمل الطرفين ، ففى كل منهما اعتداء وظلم . والأولى فى الآية أن نأخذ بتفسير الميزان فيها بمعنى العدل ، والله بذلك يأمرنا أن نقيم حياتنا فى كل ما نأتى وندع من الأمر على العدل الذى يتصف به والذى أقامه قانوناً فى الوجود لاينبغى الخروج عليه ، وإلا تعرضت حياتنا للفساد والاضطراب . وذهب الزمخشرى إلى أن الميزان فى الآية وسابقتها ولاحقتها هو الميزان الحقيقى الذى تُوزَنُ به الأشياءُ وتُعْرف مقاديرها ، ويُضْعف رأيه قولُه تعالى فى سورة الشُّورَى : (اللهُ الَّذِى أَنْزَلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ والْمِيزَانَ) ، وقوله فى سورة الحديد : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَاب والْمِيزَانَ لِيقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . والآية الثانية تلتقى مباشرة مع آيات هذه السورة ، فالله جَلَّ شأنه أرسل الرسل وأنزل

معهم الكتب التى تحمل شرائعه لهداية الناس وإسعادهم فى الدارين ، وأنزل مع الكتب الميزان . ومن المؤكد أن الميزان فى آية سورة الحديد لا يُراد به الميزان الذى يصنعه الناس ، فإنه ليس بمنزَّل من لدن الله ، وإنما يُراد به العدلُ الذى أنزله فى كتبه وأمر به الناسَ ، وهو العدل الذى يَنْهى عن البغْى والجور وارتكاب أى إثْم أو مَعْصية والذى يدعو إلى الإنصاف فى المعاملة والحكم . وقد أنكر الغزالى أن يكون الميزان فى الآية هو الميزان الحقيقى كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان يقول : «أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البُرِّ والشَّعير والذهب والفضة أم تتوهم أنه هو الطيَّار والقبَّان (ميزانان) ما أبعد هذا الحُسْبان وأعظَمَ هذا البُهْتان ! فاتَّق الله ولا تتعسف فى التأويل ، واعلمْ يقيناً أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله ومُلْكه وملكوته لتُتعلَّم كيفية الوزن به من أنبيائه ، كما تعلَّموا من ملائكته .. والخلق كلهم يتعلَّمون من الرسول ، ما لهم طريق فى المعرفة سواه » . والغزالى لا يريد المعرفة من حيث هى ، وإنما يريد ثمرتها من العدل فى جميع الأُمور ، ولن يتم للخلق ذلك إلا بعد المعرفة الشاملة لأوامر الشريعة ونواهيها والوقوف على ما نَصَّت عليه من الخبيث والطيب والعمل السيئ والعمل الصالح ، وحينئذ يقوم الناس بالقسط أو العدل على مصابيح هادية من الدين الحنيف ، وهو نفسه ما عبَّرتْ عنه آيات الرحمن (وَوَضَعَ المِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فى المِيزَانِ وأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ) ، فقد وضع الله الميزان أو العدل فى مصنوعاته وجميع مخلوقاته وجعله جوهرًا قائماً فى تراكيبها ، وشرعه للناس فى رسالاته ، حتى يلتزموه فى جميع الأقوال والأفعال ، وحتى يصدروا عنه فى جميع معاملاتهم وجميع موازينهم على اختلاف آلاتها من طَيَّار وقَبَّان وقسطاس ومكيال .

وقد طلب منهم فى مواضع مختلفة من القرآن أن يوفّوا الكيل والميزان حتى يأخذ صاحب الحق حقه دون أى زيادة وحتى يُعْطَى حقه دون أى نقصان أو بَخْس ، على نحو ما نقرأ فى آية الأنعام: (وَأَوْفُوا الكَيْلَ والْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ.) وقد توعَّد ، عَزَّ سلطانه ، الباخسين حقوق الناس فى المكيال والميزان ، على حين إذا اكتالوا لأنفسهم أو وزنوا استوفوا ما يزنونه ويكيلونه من غير نقص ، بل ربما احتالوا على زيادته بكَبْس الكيل وتحريك الميزان ، وفى ذلك يقول القرآن : (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إذا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوفُونَ وإذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) ، ويُرْوَى عن مالك بن دينار أحد الزهاد الأولين أنه دخل على جارٍ له بالبصرة وهو يُحْتَضَرُ ، فرآه مرتاعاً روعة شديدة ، فلما سأله مالك : ما يروعك ويفزعك ؟ قال له : يا مالك .. جَبَلان من نارٍ بين يدىَّ أُكلِّف الصعود عليهما . يقول مالك : فسألت أهله ، فعرفت أنه كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأما الناس فلهم المكيال الناقص يبخسهم حقوقهم ، وأما هو فله المكيال التام يستوفى به حقوقه ، وقد يزيد فيه حسب ما تُسَوِّل له نفسه. ويقول مالك : فدعوت بالمكيالين فضربت أحدهما بالآخر حتى كَسَرْتهما ، ثم سألت الرجل ، فقال : ما يزداد الأمر علىَّ إلا عِظَماً . ويقول تبارك وتعالى : (ولاتُخْسِروا الْمِيزَانَ) والإخسار النقص والبخس . وأخذ بعض المفسرين مع الزمخشرى بظاهر الآية ، فقالوا الميزان فيها هو الميزان الحقيقى ، وأن المراد لا تنقصوا الميزان ولا تطفِّفوه ولا تبخسوا الموزون فيه ولا تَغْبنوه . وذهب آخرون إلى أن الميزان فى الآية ميزان العدالة الإلٰهية يوم القيامة الذى توزن به أعمال الناس الحسنة والسيئة وزناً عادلاً دون أى ظلم أو أى بخس ، وفى ذلك يقول الله عَزَّ شأنه فى سورة

الأنبياء : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) . والآية بهذا المعنى تشير إلى ما ينبغى أن يتحراه الإنسان فى معاملاته وفيما يأتيه من كل أموره وشئونه فى الوزن وغير الوزن من العدل الذى لا تستقيم الحياة بدونه حتى لا يُخسر ميزانه يوم القيامة أو حتى لا يعرِّضه للخسران .

(وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ * وَالحَبٌّ ذُو العَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) :

الأنام : الناسُ ، وقيل الإنس والجن . والفاكهةُ ما يتفكّه به الإنسان من ألوان الثمار جميعها ، وقيل الفاكهة الثمار ما عدا التَّمْر والرُّمّان ، وكأن القائل نظر إلى هذه الآية والآية التى ستأتى القائلة (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ ونَخْلٌ وَرُمَّانٌ) . والأولى أن يكون ذكر الرمان والنخل من باب ذكر الخاص بعد العام . والأكمام جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطَّلْع ، وقيل الأكمام : ألياف النخلة المستديرة حول أعناقها . ويدخل فى الحَبِّ القمح والشعير وكل حَبٍّ يُقْتات به . والعصْفُ قيل غلاف حَبِّ القمح المعروف باسم التِّبْنِ ونحوه فى الحبوب الأُخرى مما تأكله الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، وقيل : ورق الشجر والزرع ، وقيل الورق المجتمع الذى تكون فيه السَّنابل ، وقيل أوراق النبات الذى له ساق ، تلك التى تخرج من جوانبه ، كأوراق السنبلة من أعلاها إلى أسفلها . والريحان كل بقلة طيبة الرائحة أو هو الريحان المعروف الذى تفوح ساقه وأوراقه برائحة طيبة . وقرئ (والريحانِ) بالجر عطفاً على

العصف ، وقيل فى هذه القراءة العصف ساق الزرع والريحان ورقه . وقيل العصف المأكول من الزرع والريحان مالا يؤكل لأنه يشم ولا يؤكل . والله جلَّ وعز يذكر لعباده وضْعَه الأَرضَ لهم وتهيئتها لكى يعيشوا فيها ، وقد ردَّد ذلك وصوّره مرارًا وتكرارًا فى الذكر الحكيم ، فهو قد جعلها مِهادًا لهم وفراشاً وبساطاً يتقلَّبون فيه ، وهو قد جعلها مستوية ليسلك منها الناسُ طرقاً واسعة ، وأرسى فيها الجبال ، وشَقَّ الأَنهار ليرتوىَ منها الإنسان ويستخدمها فى زرعه ، ويتخذ حدائق ذات بهجة تتفجر المياه خلالها تفجيرًا . وبوَّأها له مساكن يتخذ من سهولها قصورًا وينحت من جبالها كهوفاً وبيوتاً ، وأخرج له ألواناً من الثمرات والنباتات والمراعى رزقاً له ولأنعامه ، وفى ذلك يقول جَلَّ شأنه فى سورة عَبَسَ : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنسانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وعِنَبًا وقَضْباً وَزَيْتُوناً ونَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وأَبًّا متَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ والله يصور تهيئته القوت للإنسان وحيواناته بما يُنْزل من الغيث المِدْرار وما يَشُقُّ من الأَرضِ صِغَرًا وَكبَرًا ليُنْبِتَ فيها زروع الحَبِّ مثل الحنْطة والشعير والذُّرة ، ولينبت فيها الزيتون وثمارَ الفاكهة مثل العنب والتمر والحدائقَ الغُلْب أو العظام المملوءة بالأَشجار والزروعَ من كل نوع مما يطعمه الإنسانُ . والقَضْب : الرطب ، ومعنى الأَبّ المرعى مما تأكله الأَنعام . ويقول عَزَّ ذكره فى سورة الرَّعْدِ : ﴿وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ﴾ . والله يريد بالقطع المتجاورات أنه نَوَّع فى قطع الأَرض حتى تمد الإنسان بزروع وثمار متنوعة ، وصوَّر ذلك فيما ذكره من جنَّات الأَعناب والزروع من كل شكل . وحتى

النخيل نوَّع فى النخلتين أو الثلاث تخرج من أصل واحد ، وبذلك تكون صنواناً أو متماثلة ، حتى إذا طعمنا منها وجدنا ثمارها مختلفة فى الطعم مع أنها من أصل واحد وتُسْقى بماء واحد . وهى مِنَّةٌ لله على الإنسان أن ينوع له فى طعامه لا من حيث الاختلافات فى النوع العام ، بل أيضاً من حيث الاختلافات فى النوع الخاص ، حتى لتُعَد ألوان التمر وحده بالعشرات ، وإلى ذلك يشير جَلَّ ثناؤه فى آية سورة الأنعام : (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) ، وفى كل ذلك ترفيه للإنسان ومتاعٌ أى متاع . ويكرر القرآن أن الله ذَلَّل للإنسان الأرض وكل ما فيها لخدمته ومنفعته . ومن تتمة هذه المنن أن جعل الدينُ الحنيف كلَّ مكان فى الأرض وكل موضع فيها صالحاً لأن يُعْبَد فيه الله وأن يصلَّى له ويُرْكَعَ ويُسْجَد ، فكلُ الأرض معبد أو مكان لعبادة المسلمين : المساجد ذات المحاريب والزوايا والبيوت وكل مكان خارجها فى الحدائق على حافات الزروع وفى الحقول . ومن أجل ذلك كان المسجد يطلق فى الإسلام على كل مكان يُعْبَدُ فيه الله ، وفى ذلك يقول الرسول عليه السلام : «جُعِلَتْ لى الأرض مَسْجِدًا وتربتها طهورًا» ، فكل أرض الإسلام مسجد طاهر ، وهو تكريم لحمى الإسلام ، فهو ليس وطناً فحسب ، بل هو وطن روحى مقدس .

(فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ) :

الآلاء : النعم ، والآية تشير إلى النعم السابقة التى أسبغها الله على الإنسان ، وفى مقدمتها نعمة إنزاله القرآن الكريم ليكفل له سعادته فى

الدارين، ثم نعمة خَلْقه وإعداده للعلم والتعليم واكتساب جميع المعارف الدنيوية والأُخروية ، ثم تسخير الشمس والقمر وكل ما فى السماء من نجوم وأفلاك وكل ما فى الأرض من أشجار وغير أشجار ، تسخير ذلك كله للإنسان كى ينتفع به أكبر انتفاع . وكأنما هو محور العالم والكون كله يدور فى فلكه . وقد أودع الله الوجود نظاماً محكماً يقوم على العدالة ، وطلب إلى الإنسان أن يستلهمها فى كل تصرفاته . ومهَّد له الأرض كى يعيش بطيباتها معيشة راضية ، وكل تلك آلاء ونعم عظيمة . والخطاب فى الآية الكريمة للإنس والجن ، يشهد لذلك أن الله سيتحدث عقبها عن خلق الإنسان وخلق الجان وسيخاطبهما بقوله : (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ) وبقوله : (يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ) فالكلام موجَّه للثقلين جميعاً . وقيل الخطاب للإنس فقط. على عادة العرب فى خطاب الواحد بلفظ المثنى على نحو ما هو معروف فى مطلع معلَّقة امرئ القَيْس : «قِفَا نَبْكِ» غير أن نسق السورة كما ذكرنا يجعل الرأى الأول هو الصحيح . وقد ذُكر الله فى الآية باسم الربّ من التربية وهى التدرج بمخلوقاته من الإنس والجن شيئاً فشيئاً حتى تبلغ الكمال . وفى كلمة الرب معنى الملك والاستحقاق ، فهو الرب صاحب الكون القائم عليه ، وهو رب الإنسان الذى يرعاه ويرقى به ماديًّا وروحيًّا فى دنياه وآخرته ، وحريّ بالإنس والجن جميعاً أن يتلقيا نعم ربهما بالشكر والحمد وأن يعبداه ولا يشركا به أحدًا ، بل يخلصا له فى عبادته ظاهرًا وباطناً ، وإلا كانا كافرين بأنعم الله وما أسبغ عليهما من آلاء ، أقلُّ ما ينبغى عليهما إزاءها الابتهالُ إلى الله بالشكر والإنابةُ إليه أصدق الإنابة .

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الإنسان هنا أبو البشر آدم ، والجانّ أبو الجنّ والشياطين إبليس ، أو هو أبو الشياطين وحدهم . والصَّلْصال الطين اليابس غير المحروق إذا نُقِر بإصبع أو يد تكون له صَلْصلة وصوت ، فإذا أُحْرِق بالنار فهو الفخّار . والمارج اللهيب المختلطة ألوانه الحمراء والصفراء والخضراء لشدة ناره . وقد ذكر القرآن فى مواضع مختلفة منه خَلْقَ آدم ، فقال فى سورة البَقَرة : (وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ) ، وكأن الله كان قد أعلم الملائكة قبل إخبارهم بخلقه آدم أنه سيكون فى الأرض خلق يفسدون ويَسْفكون الدماء ، ولذلك توجَّهوا إليه بسؤالهم ، فقال لهم : (إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ) لعلمه أنه سيكون فيهم أنبياء وعباد صالحون . وقد سَمَّى الله آدم فى الآية خليفة له فى الأرض تكريماً له وبياناً لسموّ منزلته عنده ، وأشرك معه فى هذه الخلافة جميع ذريته كما قال فى سورة فاطر : (هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ) . وهى منزلة رفيعة وضع الله فيها آدم وذريته إذ جعلهم جميعاً خلفاء له فى الأرض ، فكان ينبغى أن يقوموا بحقوق هذه الخلافة فيوحِّدوه ويعبدوه ولا يفسدوا فى الأرض التى ائتمنهم عليها ولا يسفكوا الدماء . وعِلْمُ الله بذلك لم يصرفه عن خلافتهم له ، منة فوق منة ، وكل ذلك تكريم للأب وبنيه وتشريف . وقد ذكر الله الأطوار التى مرَّ بها آدم فى خلقه ، فقال فى سورة آل عِمْران إنه

(خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وهو أول طور له فى الخلق . ثم ألقى الله على التراب ماء فتحوَّل طيناً ، وفى ذلك يقول فى سورة صٓ للملائكة : (إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ) ويسودُّ الطين ويتغير، فيصبح حَمَأً، ويجف حتى يُصَلْصل ويصوِّت عند نقره فيصبح صلصالاً ويتخذ شكله الإنسانى ، وفى ذلك يقول الله للملائكة فى سورة الحِجْرِ : (إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسنُونٍ) ومعنى كلمة مسنون مصبوب ،وقيل معناها مصوَّر من سِنَة الوجه وهى صورته . وتخيَّل بعض المتصوفة أنَّ الله بعد أن سَوَّى الإنسان صلصالاً صَبَّ عليه ماء الأحزان ، وهذا هو السر فى أن كل إنسان يعانى حزناً . وفى الحديث النبوى : « إن الله عَزَّ وجلَّ خلق آدم من قبضة تراب قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدرها ، فمنهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك ، والسَّهْل والحَزْن ، والخبيث والطيب » . ويذكر الله فى سورة الأعراف أنه قال للملائكة حين يتم خلق آدم ويتكون إنساناً وأنفخُ فيه من روحى يجب أن يسجد كل منكم له (فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) . ويتكرَّر فى القرآن ذكر هذه الحادثة ، وهى قوية الدلالة على إكرام الله آدم ، فقد أمر الملائكة أن تسجد له تحية وإيذاناً بأن قوى الخير فى الكون وعلى رأسها الملائكة ستمد الإنسان بينابيع لا تنفد من النفع فى تسخير الكون له . والملائكة من عالم الأمر ، وهو عالم غيبى أمرنا بالإيمان به وبكل ما جاء به الرسل عنه ، سواء ما اتصل منه بالله أو بالملائكة أو باليوم الآخر . وهو يقابل عالمنا عالم الخلق وحقائقه الحسية . ومعروف أن الملائكة خُلقوا من نور خالص ، وأنهم أجسام لطيفة وليس فيهم ذكور

وإناث ، وهم لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون . ومعروف أيضاً أنهم يتنزّلون بالوحى على الرسل ، وأنهم يسجلون أعمال الناس الطيبة والسيئة ، وأنهم يتوفّون الأنفس حين موتها ، وكما جاء فى سورة التّحريم : (لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فهم دائماً صادعون بأمره وطاعته ، وبذلك خرجوا عن نطاق التكليف . وأعطى الله آدم كرامة أخرى إذ يقول فى سورة البقرة : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) . وتعليم آدم الأسماء كلها أسماء الأجناس والأنواع لعله رمز لما وضع فى وعيه ووعى ذريته من قوة وبصيرة على العلم والتعليم مما لم يهيّئ له الملائكة ، إذ لم ينعم عليهم بعقل كعقل الإنسان يستكشف الوجود ويحلّ ألغازه وأسراره . ويذكر الله أنه عاقب إبليس لإبائه السجود لآدم واستكباره فطرده من الملأ الأعلى وكتب عليه الذلة والهوان . وصمم إبليس على الانتقام لنفسه من آدم وذريته بما يوسوس لهم من الغَيِّ والفساد . وكان الله قد أكرم آدم وزوجه حَوَّاء فأسكنهما الجنة دار الثواب فى الآخرة بإجماع المفسرين لا يجوعان فيها ولا يَعْرَيان ولا يظمآن ، وحذره من إبليس وغيِّه ، وأمره ألا يأكل من شجرة بعينها . وانتهز إبليس الفرصة فوسوس لآدم أنها شجرة الخُلْد ، ونسى آدم أمر ربه فأكل هو وزوجه من الشجرة المحرمة نسياناً لا عن عَمْد وقصد إلى المعصية ، فبدت له ولحواء سوآتهما واستحوذ عليهما الحياءُ فأخذا يلصقان على جسمهما أوراق الجنة ، واعترفا لربهما بزلّتهما ،

وتضرَّعا إليه أن يغفر لهما ، فشملهما بواسع مغفرته ، وأمرهما بأن يهبطا إلى الأرض لتكون سكناً لهما ولذريتهما . ويهبط معهما إبليس اللعين . ويذكر القرآن فى سورة الكهف أنه لم يكن من الملائكة إنما (كَانَ مِنَ الْجِنِّ) وقد سماه الله هنا (الجانَّ) كما سَمَّى آدم (الإنسانَ) وقال إنه مخلوق من لهب النار . والجن كالملائكة عالم غير مرئى ، غير أنهم مخلوقون من نار لا من نور ، ويتوالدون كالإنس ، وفيهم ذكور وإناث . وهم مثلنا مكلفون كما يشهد بذلك خطاب الله لهم وللإنس فى سورة الأنعام إذ يقول : (يامَعْشَرَ الْجِنِّ والْإِنْسِ أَلَمْ يأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يقُصُّونَ علَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كافِرِينَ) ، فمن الجن كفار كما تدل هذه الآية وهم الشياطين الذين يغوون الناس ويدفعونهم إلى ارتكاب الشرور والآثام ، ومنهم مؤمنون آمنوا بالرسل واهتدوا بهديهم . وليس للجن رسل خاصون منهم بل رسلهم هم نفس رسل الإنس ، وشرائعهم هى نفس شرائعنا ، وقد كُلِّفوا مثل الإنس بالشريعة المحمدية كما يدل على ذلك ما جاء فى سورة الأحقافِ من قوله تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْك نفَرا مِن الجنِّ يَسْتَمِعونَ الْقُرْآنَ فَلَما حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِى ولَّوا إِلَى قَوْمِهِمْ منْذِرِينَ قَالُوا يا قَوْمنا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِن بعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه يَهْدِى إِلَى الْحقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وفى سورة الجنِّ : (قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمنا بِهِ وَلَنْ نشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) . وهى آيات صريحة فى أن الرسول عليه السلام أُرسل

إلى الإنس والجن جميعاً . وجاءَ فى آثارٍ ضعيفة أن النفر المذكور فى الآيات كان سبعة أو تسعة من جِنِّ نَصِيبين أو نِينَوَى وأنهم استمعوا إلى الرسول يتلو القرآن ليلًا أو فى صلاة الفجر بوادى نَخْلَة قرب مكة . وجاءَ فى بعض الأحاديث أنه أُمر بالقراءة على الجن فى إحدى الليالى . وضَعَّف الحفاظ الأثبات هذه الأحاديث والآثار ، وعن سعيد بن جُبيْر : « ما قرأَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو فى صلاته ، فمَرُّوا به ، فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر ، فأَنبأَه الله باستماعهم » . وتدل على ذلك الآيات السالفة ، فإنه إنما عرف استماع الجن له بوحى من الله لا عن لقاء ورؤية ومشاهدة . ولا ريب فى أن ما أفاضه الله على الجانّ فى خلقه من النِّعم كان ينبغى أن يدفعه إلى الشكر على آلائه لا إلى الجحود والكفران ، وبالمثل الإنسان فقد أَسبغ عليه نعماً كثيرة فى خلقه وأَطواره ، وسخر له الكون بكل ما فيه من شمس وقمر وأَفلاك وكواكب وطير ونباتات وحيوانات . وإنه ليقول للثقلين من الإنس والجن : (فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فى هذا الخلق وما أَعدَّ لكما فيه مما يحفظ عليكما وجودكما ، ومما يهديكما إلى الغاية التى خلقتما من أَجلها هداية مستمرة باقية .

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

جاءت كلمتا المشرق والمغرب فى القرآن مفردتين فى مثل آية سورة المزمِّل : (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ) . وجاءتا مجموعتين فى مثل آية سورة المعارج : (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) . والمراد مطلع كل يوم ومغربه ، ولذلك جاءت الصيغة بالجمع . وقيل المراد بهما فى الآية مشرقا الشمس صيفاً وشتاء ومغرباها ، وكأَن المراد بالتثنية مطلعها فى أَطول يوم من السنة

وفى أقصر يوم ، وكذلك المغربان ، ويتناول الطرفان كل ما بينهما . وقيل المشرقان : مشرق الفجر ومشرق الشفق، والمغربان : مغرب الشمس ومغرب الشفق . وقيل بل المشرقان مطلع الفجر ومطلع الشمس . وقيل المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما ، ولعل هذا القول أولى الأقوال بالترجيح ، لاتصاله بالآية السابقة فى السورة : (الشَّمسُ والْقَمرُ بِحُسْبَانٍ) ، ولأن دلالة التثنية حينئذ واضحة . والمراد رب مشرق الشمس والقمر ومغربيهما وما بينهما من الموجودات قاطبة ، فهو رب الوجود كله القائم عليه وعلى نظامه وما يجرى فيه من الليل والنهار وطلوع الشمس والقمر وغروبهما . إنه مرسل النور والظلام فى العالم ، يخلط كلاً منهما بصاحبه ، ثم يفرده ، آية كبرى من آياته الكونية ، ونعمة جُلَّى من نعمه ، فالناس لا يسيرون فى عمياء على غير هدى ، بل ما تلبث كل يوم تُنير لهم الوجودَ مصابيح الشمس والقمر ، التى ينشرها ربهم فى أرجاء الكون . والتعبير بالرب هنا دون ذكر اسمه الأعظم (الله) للدلالة على أنه ما يزال كل يوم ومع كل مطلع شمس وقمر ومغربيهما يربِّى الإنسان ، أو يقوم على تربيته والرقِّ به من حال إلى حال . رُقيًّا ينمو مع كل يوم ومع كل صباح . إنها ليست ألوهية جبروت وقهر ، بل هى ألوهية تربية وتعهد ورحمة ، ألوهيةِ نعم على الإنسان لا تكاد تحصى أو تستقصى ، نعم تسخِّر له الكون وتيسر له الانتفاع بعناصره على خير وجه . وكأن الكون منقاد إليه بزمامه ، فالشمس والقمر إنما يجريان من أجله ، لتكتحل عيناه بالنور ، وليبصر الدنيا من حوله . وليس ذلك فحسب ، فإن مع اختلاف مشارق الشمس والقمر ومغاربهما اختلاف الفصول على مدار العام ، لكى ينتفع الإنسان بكل فصل وجوّه وزروعه ، وليجد من الاختلاف فى ذلك

متاعاً لنفسه . وحرىٌّ بالإنس والجن أن يشكروا هذه النعم المتصلة ولا يكفروها ، نعمة نور الشمس وضياء القمر ، ونعمة الاختلاف بين المشرق والمغرب ونعمة الاختلاف بين الفصول ، ونعمة الوجود الكونى كله .

(مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ * فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

مرج تأتى بمعنيين : أرسل وخلط ، يقال مرج الإبل فى المرعى إذا أرسلها فيه ، كما يقال مرج الماء واللبن إذا خلطهما ، وإذن فقوله تعالى : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) إما أن يكون بمعنى أرسلهما متجاورين متلاقيين لا فصل بين ماءيهما فى مرأى العين ، وإما أن يكون بمعنى خلطهما فهما يلتقيان . والمعنى الأول أولى لذكر البرزخ الحاجز بينهما فى الآية . واختلفت الآراء فى المراد بالبحرين ، قيل بحر السماء وبحر الأرض ، وقيل بحر فارس (خليج العرب) والبحر المتوسط ، وقيل بحر المشرق والمغرب المذكورين بالتثنية فى الآية السابقة . وقيل البحر الملح والنهر العذب ، ولعل هذا القول أولى الأقوال بالترجيح لقوله تعالى فى سورة الفرقان : (وَهوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا برْزَخاً وحِجْرًا محْجُورًا) وكأن الله سمَّى ماء النهر الكثير الواسع بحرًا . والفرات شديد العذوبة والأُجاج نقيضه . والبرزخ : الحاجز بين الشيئين ومثله الحِجْر فى آية الفرقان ، أو لعل معنى (حِجْرًا محْجورًا) سترًا مستورًا . وهذا البرزخ والحجر إما حقيقيان بمعنى أن بين البحرين برزخاً من اليابسة ، وكأن الآية عن مطلق البحر العذب والبحر الملح ووجودهما على ظهر المعمورة ، وإما مجازيان بمعنى قدرة الله . ويَجْرى

مع ذلك فهمان متقابلان ، فهمٌ يمثِّله التقاءُ الأنهار بالبحار والمحيطات وأن كلا من الماءين العذب والملح لا يتجاوز حده ، وهو معنى (لَا يبْغِيَانِ) فكل منهما لا يبغى على صاحبه ولا يطغى عليه بالممازجة والاختلاط . وفهم ثان أعم وهو قدرة الله على أنْ خَلق البحار ملحةً والأنهار عذبة . والتقاؤهما ليس التقاءً حقيقيًّا وإنما هو التقاؤهما فى مرأى العين ، بمعنى أن الإنسان يراهما ، وإذا رأى أحدهما تذكر صاحبه . ويذكر بعض المفسرين تعليلا غريبا لخلق المياه الملحة والعذبة ، إذ يقولون إن الله تعالى كلَّم المغرب أو الناحية المغربية فقال إنى جاعل فيك عبادًا لى يسبِّحوننى ويكبِّرونى ويهلِّلوننى ويمجِّدوننى فكيف أنت لهم ؟ فقال المغرب : أُغرقهم يارب ، فقال الله إنى أحملهم على يدىَّ وأجعل بأسك فى نواحيك . ثم كلَّم المشرق أو الناحية الشرقية ، فقال : إنى جاعل فيك عبادًا لى يسبِّحوننى ويكبِّرونى ويهلِّلوننى ويمجِّدوننى فكيف أنت لهم؟ قال : أُسبِّحك معهم إذا سبَّحوك ، وأُكبِّرك معهم إذا كبَّروك ، وأُهلِّلك معهم إذا هلَّلوك ، وأُمجِّدك معهم إذا مجَّدوك ، فأثابه الله الحِلْية التى تتخذ زينة ، وجعل بينهما برزخاً ، وتحوَّلَ أحدهما ملحاً أجاجاً ، وبقى الآخر على حالته عذباً فُراتاً سائغاً للشاربين ! و (لَا يبغِيَانِ) لا يبغى أحدهما على صاحبه ، كما أسلفنا ، فيغلبه ، وقيل : (لَا يبْغِيَانِ) على الناس فيغرقانهم إذ جعل بينهما وبين الناس يبَساً ، وقيل : المعنى (لَا يَبْغِيانِ) أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : (مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ) لولا البرزخ الذى بينهما لا يبغيان أن يلتقيا ، وهو تكلف فى التقدير . وقيل البحران طريق الخير وطريق الشر ، والبرزخ الذى بينهما التوفيق ، وقيل هما العقل والهوى والبرزخ بينهما لطف الله ، وقيل هما الطاعة والمعصية والبرزخ العصمة ،

و (لاَ يبْغِيانِ) فى كل ذلك لا يؤثر أحد البحرين فى الآخر . وقيل هما الدنيا والآخرة والبرزخ القبر من وقت الموت إلى القيامة . وقيل الحياة والموت والبرزخ الأجل . وقيل الحجة والشبهة والبرزخ النظر الدقيق . وكل ذلك تجاوز بعيد للظاهر الواضح الذى تكاد دلالته تُلْمس لَمْساً ، والذى يجرى مع آلاء السورة السابقة واللاحقة . ولا ريب فى أن نعمتى البحار والأنهار من أعظم النِّعم التى أضفاها الله على الإنسان ، أما الأنهار ففيها الماءُ العذب كيمياء الحياة ، وأما البحار ففيها الأسماك التى أُحِلَّ للناس صَيْدُها وطعامها ، وفيها الحلىّ وغير ذلك من منافع ذكرها القرآنُ ، وحرىٌّ بالثقلين أن يشكرا الله على النعمتين وأن يعبداه حق عبادته .

(يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

اللُّؤْلُؤُ الدُّرُّ ، والمَرْجان الخرز الأحمر . ويكثر اللؤلؤ فى الخليج العربى وبحر الهند . وينمو المرجان فى البحر كالشجر ، ومنه أبيض وأحمر وأسود ، وقيل اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره . وذكرنا آنفاً أن المراد بالبحرين البحر الملح والبحر العذب ، ومعروف أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح . وإذن فنسبة خروجهما إلى البحرين مع أنهما لا يخرجان من البحر العذب إنما هى على سبيل التغليب كما يقال يخرج الولد من الذكر والأُنثى وإنما تلده الأُنثى ، وكما قال تعالى فى سورة الأنعام : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) ، والرسل من الإنس دون الجن كما أسلفنا. وقيل إن اللؤلؤ والمرجان إنما يكثران فى ملتقى الأنهار بالبحار على نحو ما هو معروف عن الخليج العربى وكثرة اللؤلؤ فيه لالتقاء مياه الفرات ودجلة بمائه

الملح الأُجاج . وقيل معنى خروج اللؤلؤ والمرْجان حدوثهما من تلاقى الماءين . والأَولى أن نـأْخذ بفكرة التغليب السابقة وأن يَظلَّ للبحرين معناهما العام . والله جَلَّ وعَزَّ يريد بذكره اللؤلؤ والمرجان اتخاذ الإنسان لهما حلية وزينة ، وهو ما عبَّر عنه فى موضع آخر من الذكر الحكيم بقوله فى سورة فاطر: (وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهٰذَا مِلْحٌ أُجاجٌ ومِنْ كُلٌّ تَـأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا). واللَّحْمُ الطَّرِىُّ السمك ، والحِلْيةُ اللُّؤْلُؤُ والمرجان عَبَّر عنهما بمراد الإنسان ومقصده من اتخاذهما . وبذلك يقرن الله إلى نعمه الروحية والمادية والكونية التى أَسبغها على الإنسان نعمة تمكينه من تزيُّنه وخلق حاسة الزينة والجمال عنده . وقد كرر فى القرآن كثيراً أنه زيَّن له السماء والأَرض ليتملَّى نظره بـآيات الجمال فى كل ما حوله من مشاهد ومناظر . فقال فى سورة الحِجْر : (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) وقال فى سورة فُصِّلت : (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) يريد الكواكب والنجوم . أما الأَرض فجعل كل ما عليها جميلا : الحيوانات بـأَنعامها وغيرها كما قال فى سورة يونس : (أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ) . وتلك البحار تمدها بزينتها وحليها من اللؤلؤ والمرجان . ولقد أَمد الله الإنسان بزينة ما مثلها زينة فى خَلْقه . وذكر ذلك فقال فى سورة غافر : (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) . وعلى هذا النحو كلما مدَّ الإنسان بصره إلى جنسه وإلى ما حوله فى الأَرض والسماء وجد ما يمتع نظره وقلبه وما يغذِّى روحه وعقله من روائع الجمال والحسن والزينة الباهرة . وكأَنما الجمال والزينة والحسن جواهر قائمة فى تركيب كل شىء فى الكون ، ومنها ما لا يحتاج إلى يد الإنسان، ومنها ما يحتاج إليها كالحلىِّ وكثير من أَنواع الزينة والرِّياش التى يتخذها فى حياته مترقياً بها مع

أطواره الحضارية . ومتاعه بالجمال الصناعى إنما غَرَسَهُ ربّه فيه بما وضعه تحت بصره من صور الجمال الكونى ، فهى التى نمَّت فيه حاسَّة الجمال ، وهى التى جعلته ينعم بمناظره ومشاهده فى اللؤلؤ والمرجان وغير اللؤلؤ والمرجان ، ويجد لذلك فى نفسه بهجة وفرحة ومسرة ، كما يجد لذة ومتاعاً وغذاءً لبصره وفؤاده ، وإنها لنعمة من أكبر النعم التى يجدر بالثَّقَلَيْنِ أن يقدِّما من أجلها لربهما شكرًا صافياً مخلصاً غير كافرين أنعمه : نعمة الجمال والشعور والإحساس به فى كل جميل وكل حُسْن وكل حلية وكل زينة .

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَئَاتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الجوارى جمع جارية وهى السفينة ، وهى الفُلْك . وكلها جاءتْ فى القرآن مرارا . وأكثرها دورانًا فيه الفُلْك ومفرده وجمعه ومذكره ومؤنثه بلفظ واحد ، وقيل واحده فَلَك مثل أَسد وأُسْد . والمنشآت بفتح الشين المصنوعات للجرى والسير من الإنشاء أى الصُّنْع والخَلْق . وقيل : المنشآت المرفوعات الشُّرُع من أنشأه بمعنى رفعه . والشُّرُع بضمتين جمع شراع وهو قِلْع السفينة بكسر القاف . وقرئ المنْشِآت بكسر الشين أى الرافعات الشُّرُع أو اللائى ينشئن الأمواج بمعنى يُجْرينها . والأعلام جمع عَلَمٍ وهو الجبل الضخم أو الشاهق ضخامة وارتفاعاً . وقد ذكر الله فى القرآن نعمة الفُلْك والجوارى والسفن موضِّحًا لها ومبيناً أفضاله وآلاءَهُ فيها ، تارة يذكر أنه سخَّرها للإنسان كما فى سورة إبراهيم : (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) وتسخيرُها أن تجرى على وجهه مع ثِقَلها . وتارة يذكر أنه سخّر البحر

لتجرى فيه كما فى سورة الجاثية : (اللهُ الَّذِى سَخَّرَلَكُمُ الْبحْرَ لِتَجْرِى الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه) . وتسخير البحر تذليله لتطفو عليه السفن وليحملها إلى أقاصى الأرض . وعَمَّم فى المنافع منه إذ قال : (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) ، وفضله على الإنسان فيه وفير . إذ سخره له كى يحقق مآرب كثيرة ، منها استخراج الأسماك أو الصيد . ومنها استخراج اللآلئ والمرجان المذكور فى الآية السالفة أو الغوص . ومنها التجارة وكسب الأرباح . ومنها الارتحال إلى بلد ناءٍ بَحْثاً عن وجوه الرزق . ومنها ركوبه للحج أو للجهاد . وقد شبَّه الله السفن فى البحر بالجبال فى البر للدلالة على أنها مهما استطالت وعظمت حتى صارت كالجبال الضخمة الشاهقة فإن البحر يحملها بقدرة الله وتيسيره ، نعمة كبيرة على الإنسان . وقد صور تتمة هذه النعمة فى سورة الشُّورَى إذ قال : (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) ومعنى (رواكد) ثوابتَ لا تجرى فى البحر ومعنى (يُوبِقْهُنَّ) يهلكهن . والله ، عَظُمَ فضله ، يقول إنه إن يشأ ينزل بالفلك الجوارى إحدى كارثتين : إما كارثة سكون الريح فتركد على متن البحر ولا تستطيع الحركة والانطلاق ، وإما كارثة العواصف المدمرة فتهلك غرقاً بسبب ما اقْتَرَفَ مَنْ فيها من الذنوب ، ومع ذنوبهم وسيئاتهم يذكر العفو ، بل إنه يذكر الكارثتين ليبين أنه يَفْضُلُ على مَنْ يركبونها بدفعهما عنهم ، فهو يَصْرِف عنها الكوارث ، ويدفعها فى البحر برفق ، كما قال فى سورة الإسراء : (رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) . ولعظم هذه النعمة وجلالها بما ذلَّل فيها من

البحر ومياهه والرياح اللينة التى تجرى رُخاءً أدخلها فى أقسامه التى أقسم فيها ببعض مخلوقاته دلالة على أنها من عظيم آياته إذ قال : (وَالذَّارِياتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا) و (الذَّاريات) الرياح تذرو التراب وغيره أى تدفعه دفعاً . و (الْحَامِلَاتِ وِقْرًا) أى حِمْلاً عظيماً هى السحبُ الحاملة للمطر التى تدفعها الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، فتحيا بها الأرض بعد موتها . و(الجاريات) السفن تسوقها الرياح (يسرًا) فى سهولة بكل ما تحمل من متاجر ومن مسافرين بالغة بهم غاياتهم ، آية كبرى من آيات الله ينبغى أن يقابلها الإنسان بالشكر له على ما أولاه . وذكر هنا بعض الأسلاف أن الآيات القريبة السالفة فى السورة شملت حتى هذه الآية العناصر الأساسية الأربعة ، وهى التراب والنار والماء والهواء ، ففى قوله تعالى : (خلق الإنْسانِ مِنْ صَلْصَالٍ) إشارة إلى أنه مخلوق من تراب عجيب الشأن . وقوله : (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نَارٍ) صريحٌ فى ذكر النار وأنها أصلٌ لمخلوق غَيْبِىٍّ مستور عن بنى الإنسان . وقوله : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ والْمَرْجَانُ) إشارة إلى أن الماءَ أصل لكل شىء حى عظيم القدر والقيمة . وقوله: (وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَئَاتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) إشارة إلى الهواء وأن له تأثيرًا قويًّا فى جريان السفن الثقال كأنها الأعلام أو الجبال .

(كلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

كل من على الأرض فانٍ هالك ، وهو هلاك وفناء مستقر فى طبيعة الموجودات الممكنة ، ونسبة الوجود إليها كنسبة العدم لا بد من سبب يرجِّحه وهو الله علة

الوجود ومنشئه . ويمتنع أن يكون وجود الله ممكناً ، لأن الممكن لا يقوم الوجود بذاته من ذاته ، وإنما يقوم به من عِلَّةٍ خارجة عنه ، مما يعيِّن أن يكون وجود الممكن إنساناً وغير إنسان مستفاداً من موجود غير ممكن الوجود بل واجب الوجود ، ومنه تستفيد الممكنات جميعاً وجودها ، فهو موجدها ومنشئها ، وهو الذى يمدُّ لها فى الوجود والبقاء فيحفظهما عليها حسب مشيئته ، حتى يحْسِرهما عنها ، فتسقط فى الفناء والهلاك . ومعنى ذلك أن وجود الإنسان عارض ، فقد وُجِدَ أو بعبارة أخرى حَدَث ، بعد أن كان معدوماً ، وحدوثه أووجوده إلى حينٍ ، حسب ما كتب له الله من حياة وبقاء . وهلاكه وفناؤه لا يعنيان العدم المطلق ، فإنه يموت ثم يحيا بعد موته . وإذا قرنَّا ما صوَّره الله من ترقِّيه بوجوده فى حياته الدنيا إلى ما صوَّره من فنائه وإقامته فى البَرْزَخِ أو القَبْر ، وبعْثه ، ثم حياته فى الدار الآخرة ، وجدنا تشابهاً فى الصورتين ، فقد خلق الله الإنسان الأول بعد عدم من تراب ثم تحول به صلصالا ثم (سَوَّاهُ ونَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) وأخذ يتناول حياته الدنيا . وكذلك أبناؤه أحدثهم بعد عدم من نطفة ، تدرَّج بها حتى تحولت جنينًا وتحول الجنين طفلاً ، ونما الأطفال ، وكُفلت لهم الأسبابُ الكونية والدينيَّة الروحية ، فاهتدى منهم من اهتدى ، وضَلَّ من ضَلَّ ، وسعِدَ من سَعِدَ ، وشَقِيَ من كُتِب عليه الشقاءُ . وهذا التدرج الدنيوى للإنسان من العدم إلى حجاب التراب والطين والصلصال ونَفْخ الروح فى آدم وحجاب النطفة والتكوّن فى أثناء الحمل حتى الولادة فى أبنائه ثم الحياة الدنيوية ، يقابله تدرج الإنسان الأخروى من فنائه بعد وجوده إلى حجاب القبر أو برزخه ، وكأنه يعود إلى التراب الذى نشأ منه أبوه أو قل الذى تكونت فيه نشأته الأولى . وقد أشار القرآن إلى

هذه النشأة مرارًا بمثل قوله فى سورة نوح : (واللهُ أَنْبتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً) وقوله فى سورة هود : (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ) فقد نشأ الإنسان من الأرض ومرت به أطوارٌ حتى هلك . وعاد إليها بعد هلاكه ليبدأ نشأته الثانية الخالدة . وعلى نحو ما تغيب عن الإنسان حياته فى حجابه الدنيوى تغيب عنه أيضاً حياته فى حجابه الأخروى . فلا يدرى من أمرها شيئاً طوال حياته الدنيوية ، وقد ورد فى القرآن ما يشهد بأن للإنسان حياة فى هذا الحجاب إذ جاء فى سورة آل عمران عن شهداء يوم أحُد : (وَلَا تَحْسبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ ربِّهم يُرْزَقُونَ) وجاء فى سورة غافر عن آل فرعون : (وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عليها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) . وواضح أن الآية تدل على عذابهم فى القبر حتى قيام الساعة . وفى صحيح البخارى : «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعَشِيِّ ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدُك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . وما يزال الإنسان فى هذا الحجاب حتى يكون البعث . وزعم بعض متفلسفة الإسلام ومن جاراهم أن البعث بالأرواح لا بالأجساد ، لأن الأجساد تتحلَّل ، ولو أنهم أنعموا النظر فى الذكر الحكيم لوجدوه يؤكد مرارًا وتكرارًا أنه سيبعث الناس بأجساد حقيقية ، يقول فى سورة يس : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيها الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّل مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) ويردِّد الله أنه كما يحيى الأرض بعد موتها بالغيث والنبات سيحيى الناس ، وأنه كما بدأهم فى نشأتهم الأولى فَخَلَقَ آدم أباهم من التراب سيخلقهم فى الآخرة مثله من التراب .

ويردِّد أطوار خَلْقه الإنسانَ فى بطن أُمه ، إذ جعله عَلَقَةً ثم حوَّل العلقة مُضْغَةً ، ثم حول المُضغَةَ عظاماً ولَحْماً ثم سوَّاه وأنشأَه خَلْقاً آخر ، كذلك سيصنع بالناس فى النشأة الثانية ، إذ سُيْنبتهم من التراب دون حاجة إلى رحم وأُمهات وآباء ودون حاجة إلى أغذية وأطعمة . نشأة جديدة لا تماثل النشأة الأُولى فى طبيعتها ، فتلك النشأة فاسدة قابلة للتحلل والفناء ، أما نشأة الحياة الآخرة فنشأة دائمة خالدة لا يلحقها الفساد ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الواقعة : (وَنُنْشِئَكُمْ فِيما لَا تَعْلَمُونَ . ولَقدْ عَلِمْتُمُ النَّشأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) . وإنَّما أطلنا فى بيان هذا كله لنشرح الفناء فى الآية ، وأنه فناءٌ يعقبه استشراف الإنسان فى القبر لنعيمه وعذابه حسب عمله . وإنما كان الفناء نعمة ، لأنه يزيل السور القائم بين الإنسان وحياته الأُخروية الأبدية وما ينْعَمُ به فيها من رضوان الله السَّرْمَدِىِّ ، وأيضاً لأنه يتخلص من الحياة الدنيوية وآلامها ويرحل عنها إلى حياة روحية رفيعة . واختلف المفسرون فى كلمة (وَجْه) المذكورة فى الآية الثانية والمضافة إلى الذات العلية ، فقيل الوجه المقصد أى يبتغى ما يُقْصَدُ به رَبُّك من الأعمال الصالحة ، كما قال الشاعر :

أَستغفر اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ ربّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ

ويتصل بهذا المعنى قول من قال إن الوجه هو الجهة التى أمرنا الله أن نتقرب بها إليه ، وهى العمل الصالح ، والله يبقيه للعبد حتى يجزيه به ، ولذلك وُصف بالبقاء ، أو لأنه بقبول الله صار باقياً غير فانٍ لقيام الجزاء عليه مقامه وهو باق . وقيل الوجه هو وجه الموجودات الذى يلى جهة الله ، بمعنى أن الموجودات كلها فانية إلا باعتبار الوجه الذى يتولَّاه الحق جَلَّ وعزَّ ، والمراد شئونه وفيوضه على الكائنات فإنها باقية متصلة . وكأن هذا القول ينظر إلى

رأى الصوفية الذين يؤمنون بوحدة الوجود ذاهبين إلى أنه ليس فى الوجود ذوات مختلفة ، بعضها واجب الوجود ، وبعضها ممكن يَعْرض له الوجود والعدم ، إنما الوجود كله ذات واحدة لها شئون متعددة وتجليات متجددة . وقيل الوجه رضا الله وثوابه ، كما جاء فى سورة الإنسان : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ) أى لرضاه وطلب ثوابه وكما جاء فى الحديث : « من بنى مسجدًا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة » . وفى كل هذه المعانى لكلمة (وجه) بُعْدٌ عن سياقها فى الآية مع ما قبلها ، وطبعاً لا يراد بها الوجه الحقيقى ، لما يقتضى ذلك من التشبيه على الله وأنه يماثل المخلوقات ، وإنما هى مجاز عن ذاته العلية ، يقول الزمخشرى : « الوجه يعبَّر به عن الجملة والذات ، ومساكين مكة يقولون أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان ؟ » يقصدون إنساناً ، ويشهد لهذا المعنى فى الآية وأن الوجه هو ذات الله القدسية ظاهر قوله فى سورة البقرة : (وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ) ، وقوله فى سورة القصص : (لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) . وهو الواضح المراد من هذه الآيات جميعاً ، وإن حاول بعض المفسرين صرف الكلمة فيها إلى المعانى التى أسلفنا . و (الجلال) العظمة والمهابة ، و (الإكرام) الفضل التام واللطف ، وفى الاية ثلاثة أقوال ، أحدها أنه أهل أن يُجِلَّه الناس وأن يكرموه عن تشبيهه بخلقه ، وأن يثبتوا له ما يليق بشأنه من التعظيم والإكرام ، والثانى أنه يُجِلُّ ويُكرم أهل طاعته ، والثالث أنه أهلٌ فى نفسه للإجلال والإكرام . ولا ريب فى أن الإجلال فوق الحمد. ويُسَنُّ فى ركوع الصلاة أن يقول المصلى سبحان ربى العظيم ، وفى القيام يَحمده ويُثْنى عليه ، فهو يُمَجِّده ثم يَحْمده ، أو هو يجلّه ويعظّمه ثم يكرمه

ويحمده . ويمكن أن يقال إن الإجلال تمجيد والإكرام حب وإنعام . وقيل إن الجلال إشارة إلى كل صفة هى من باب النفى كقول القائل : الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولذلك يقال جَلَّ أن يكون جسماً أو جوهرًا أو عرضاً ، والإكرام إشارة إلى كل صفة هى من باب الإثبات مثل اللهُ قادرٌ عالم حَيٌّ قَيُّومٌ . وهذا القول غير دقيق لأن نفى الصفة يتضمن إثبات مقابلها ، أو بعبارة أخرى يتضمن معنى ثبوتيًّا ، كما أن إثباتها يتضمن معنى سلبيًّا فمثلا قول الله فى سورة البقرة : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىءٍ مِنْ عِلْمِهِ) يتضمن كمال علمه ، وقوله : (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) يتضمن كمال حياته ووجوده ، وقولنا إنه قادر يتضمن أنه غير عاجز ، وقولنا إنه عادل يتضمن أنه غير ظالم . وفى قراءةٍ (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) على أن (ذى) تابعة لكلمة (ربك) لا لكلمة (وجه) . وفى الحديث : «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام» . والإلظاظ لزوم الشىء والمثابرة عليه والإلحاح ، أى الزموا ذلك فى الدعاء ، ولذلك كان يتردد فيه على لسان الداعين : اللهم ياذا الجلال والإكرام . وفى ذكر هاتين الصفتين بعد فناء الخلق إشارة إلى أنه جلَّ وعزَّ صاحبُ العظمة والسلطان وصاحب الإفضال والإنعام والإحسان ، فبعد هذا الفناء والعدم يتيح للإنسان حياة جديدة ينشئه فيها نشأة أخرى بعظيم قدرته وبإحسانه ورحمته ، نشأةً لا يلابسها فساد الوجود وانحلاله على نحو ما كان الأمر فى النشأة الأولى بل يلابسها الخلود والبقاء إلى أبد الآبدين ، وكأنه يقول لعباده إننى باقٍ لكم ، باقٍ بعظمتى وفضلى فلا تَغْتَمُّوا ، فإن ما أفضتهُ عليكم فى دنياكم من آثار جلالى وحُبِّى وإحسانى سيتبعكم فى أخراكم . وبذلك نفهم تقريره الثقلين على آلائه إزاء الفناء

وما يلحقهما من العدم . فإن العدم والفناء سوران فاصلان بين الحياة الدنيوية الزائلة والحياة الأُخروية الخالدة وفى امحائهما وزوالهما نعمة ظاهرة ، تتبعها نعمة الجزاء والإثابة بالنعم السرمدية .

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كلَّ يَوْم هُوَ فِى شَأْنٍ * فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

كلُّ منْ فى السموات والأرض يسأَلون الله عَزَّ وجلَّ بقاءهم وكلَّ ما يتصل بالبقاء من حاجات وكمالات ، فبقاؤهم موصول بالعناية الإلٰهية ، وهم لذلك يتجهون إلى الله دائماً بالسؤال ، إما بلسان المقال أو بلسان الحال . وسؤالهم إما سؤالٌ يتصل بالمعرفة وما يُطْلَب للسائل من الوقوف على صلاحه وفساده ليتَّبع سبيل الرشاد ، كما قال تعالى فى سورة الأَنبياء : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) ، وإما سؤالٌ يتصل بالعطاء والهبة والطَّلب وعَرْض الحاجة . والنوعان من السؤال يتداخلان ، لأَن مرجعهما بالإضافة إلى الله ما فيه صلاح الدنيا والدين . و (منْ فِى السَّمٰوَاتِ) الملائكة ، وقيل يسأَلون الله الرحمة وقيل يسأَلونه القوة على العبادة . وقيل يسأَلونه المغفرة لأَهل الأَرض ، وقيل يسأَلونه لهم المغفرة والرزق . وكرر القرآن أَنهم دائماً يستغفرون للناس مؤمنين ومشركين دون تفريق طالبين إلى الله غُفْران ذنوبهم والعفو عن آثامهم ، وفى ذلك يقول جل شأْنه فى سورة الشُّورَى : (وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الْأَرْضِ) مُلتمسين منه أَن يصونهم من العذاب . وينص القرآن على أَن استغفارهم للمؤمنين أَعظم ، إذ لا يكتفون فيه بطلب الغفران بل يطلبون من الله لهم الرضوان وفراديس الجنان

على نحو ما نقرأ فى سورة غافر : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ومنْ حوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . وهو سؤال كريم من حَمَلَةِ العرش الإلهى ، من الملائكة المقرَّبين ومَنْ حولهم من أمثالهم . ومن الممكن أن يكون المراد بحملة العرش الذين يقومون على تنفيذ المشيئة الربانية فى الوجود كله من الملائكة وغيرهم . وتمثِّلهم الآيات الكريمة يطلبون الغُفْران للمؤمنين وأن يصونهم الله عن أن تمسهم النار ، بل يدخلهم فردوسه الذى وعدهم به وأن يجمعهم فيه بآبائهم وأزواجهم وأبنائهم ، حتى تقرَّ أعينهم بهم جميعاً ، وهم يوالون هذا الدعاء وأن يحفظ المؤمنين من السيئات ، حتى يُكْتَبَ لهم الفوز العظيم . ويتلَطَّف الله ، فيقرن ذاته العلية إلى الملائكة فى الاستغفار والدعاء رحمة وحُنُوًّا بالناس وخاصة بالمؤمنين ، إذ يقول فى سورة الأحزاب : (هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وملائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) . وإذا كان أكثر ما ينصبُّ عليه سؤال الملائكة لربهم هو طلب المغفرة لأهل الأرض فإن أهل الأرض يشركونهم فى هذا السؤال وفى أسئلة أخرى كثيرة يسألونها ربهم ، من ذلك سؤال الاسترشاد وسؤال التوفيق وسؤال العطاء وسؤال العون والنصرة وسؤال الشفاء والنجاة إلى غير ذلك من أسئلة تتصل بدنياهم ودينهم . ويتلطف جَلَّ شأنه فيطلب إلى الإنسان أن يسأله قائلا فى سورة النساء : (وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ) وبحق

قال سفيان بن عُيَيْنة أحد المحدِّثين الأولين : «لم يأمر بالسؤال إلا ليعطى» . وفى كل جانب من جوانب الذكر الحكيم نحس كأن خزائن السموات والأرض قد فُتحت أبوابها على مصاريعها كى يسأل الإنسان ربه ويعطيه من هباته ، يقول جَلَّ ذكرُه فى سورة البقرة : (وإذَا سأَلَكَ عِبادِى عَنِّى فَإنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ) وفى الحديث : «إن لربكم فى بقية أيام دهركم نَفَحاتٍ فتعرَّضوا له ، لعل دعوةً أن توافق رحمةً فيسعد بها صاحبها سعادةً لا يخسر بعدها أبدًا» ، وقال سُفْيان بن عُيَيْنَةَ : «لا يمنعنَّ أحدًا من السؤال أو الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن الله قد أجاب دعاء شَرِّ الخلق إبليس (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ)» . وقيل لإبراهيم بن أدهم أحد الزهاد السابقين : «ما بالنا نسأل الله فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرسول فلم تتَّبعوا سُنَّتَهُ ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به ، وأفاض الله عليكم نعمه فلم تؤدوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا ، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس» .

وتصوِّر الآية كلَّ من فى السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن متجهين إلى الله يضرعون إليه بالدعاء أن يستجيب لهم وأن يحقق ما يأملون ويرتجون من مغفرة ، أو من عمل صالح ، أو من عمل سيئ فيهم أو فى غيرهم يبتغون الخلوص منه ، أو من استقامة يبتغون دوامها أو حصولها ، أو من قربٍ من الله أو منزلةٍ عنده وطاعة وثواب . وطبيعى أن تتعدد الأسئلة والأدعية حسب المقامات والمواقف ، فالخائف يسأل النجاة ، والراجى يسأل الثواب ،

والجاهل يسأل العلم ، والعالم يسأل الزيادة فى علمه ، والمريض يسأل الشفاء ، والتائب يسأل النجاة ، والعاصى يسأل العفو والغفران . و (كلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) من الشئون . وتشمل الشئون كل ما يسأله أهل السموات والأرض ، إذ لا يزال الله ينشئ أمورًا ويجدِّد أحوالا ، ويُرْوَى أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم تلاَ الآية على أصحابه . فسأله أحدهم : ما ذلك الشأن ؟ فقال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرِّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين » ، وفى رواية أنه قال : « يغفر ذنباً ويكشف كَرْباً ويجيب داعياً » . وقيل : شأنه أن يحيى ويميت ويعزّ ويذل ويرزق ويمنع . وقيل شأنه أن يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويشفى سقيماً ، ويسقم سليماً ، ويبتلى معافًى ، ويعافى مبتلًى ، ويعزّ ذليلاً ويذل عزيزًا ، ويفقر غنيًّا ، ويُغْنى فقيرًا ، ونحو ذلك حسب ما تقتضيه إرادته الربانية القائمة على الحِكم والمصالح الجليلة . وقال سُفْيان بن عُيَيْنة : الدهر عند الله تعالى يومان أحدهما اليوم الذى هو مدة عمر الدنيا فشأن الله فيه الأمر والنهى والإماتة والإحياء والابتلاء والاختبار والإعطاء والمنع ، وثانى اليومين اليوم الآخر الذى هو يوم القيامة وشأنه فيه – سبحانه – الجزاء والحساب والثواب والعقاب . والظاهر أن المراد فى الآية الإخبار عن شأنه جَل وعز فى أيام الدنيا . والشأن فى اللغة الخطب العظيم . وتعرَّض بعض القدماء لأحد العلماء يسأله عن هذه الآية (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) وما جاء فى الحديث من أن القلم جفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة وأنه لا تغيير لأمرٍ ولا تبديل . فأجابه على الفور بأنها شئون يبديها الله لا يبتدئها . ويقال إنه أجاب إجابة ثانية ، فقال إن المراد بالشأن سَوْق المقادير إلى

مواقيتها . وواضح أن الآية تصوِّر غِنَى الله عما سواه وأن كل الخلق فى حاجة إليه ، وأنهم يسألونه صباح مساء ، وهو يلبِّى دعاءهم رحمة بهم وإنعاماً . ولا ريب فى أن هذه الأبواب المفتوحة التى لا تُغْلَق أمام أهل السموات والأرض : أبوابَ الرحمة والبر والحنان والرأفة واللطف وإجابة الأسئلة وتلبية الأدعية حريةٌ بأن تدفعهم جميعاً إلى شكر الرحمن الرحيم على آلائه ونعمه ، وقد بلغ من رحمته بعباده أن قال لهم فى سورة غافر : (ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ) فنَدبهم من فضله وعظيم كرمه إلى دعائه ، ووعدهم الاستجابة لهم ، مِنّة عظيمة من مننه .

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الثقلان الإنس والجن كما مر بنا ، وفراغ الله لهما إشارة منه جَلَّ جلاله إلى أن هذه النشأة الأولى ستنتهى وستتبعها نشأة ثانية من البعث والحساب والجزاء . ويكرر القرآن أنه لا بد من البعث ، وإلا ففيمَ أعطى الله الإنسان القدرة والعقل والاختيار بين طريقى الخير والشر؟ وفيم أنزل على رسله الشرائع وكلَّفه تعاليمها ؟ وفيم يكون الفرق بين من صَدعَ بتعاليمه ومن نكل عنها ؟ وفى ذلك يقول عَزَّ شأنه فى سورة طه : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) ويقول فى سورة صَ : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ). فلا بد من القيامة والبعث حتى يجازى الناس على ما يعملون ويثابوا أو يعاقبوا على ما يفعلون . وقد ذُكر يوم البعث فى القرآن بأسماء كثيرة ، منها يوم القيامة ، والساعة ، ويوم الدين ، واليوم الآخر ، ويوم الحساب ، ويوم الفَصْل ، ويوم

التَّنادِ ، ويوم يُنْفَخُ فِى الصُّور . وقيل الصور النفير أو البوق . وقيل الصور جمع صورة أى اليوم الذى يَنْفخ فيه الله فى صور الناس جميعاً ، فَيُبْعَثُونَ من مرقدهم ويحيون بعد موتهم. كما قال الله فى نشأة آدم فى سورة السجدة : (ثُمَّ سوَّاهُ ونفخ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) . ومثل الصور فى الآية الناقور فى آية سورة المُدَّثِّر : (فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يوْمٌ عسِيرٌ) فقد قيل الناقور البوق أو النفير ، وقيل بل الصُّور جمع صورة كما مر فى تفسير الآية السابقة ، ومعنى النقر النفخ ، والآية بذلك ترادف سابقتها فى المعنى والدلالة . ولعل ذلك كله تمثيل ليوم البعث والخروج من القبور . ومن هذ التمثيل تسمية يوم القيامة بأنه يوم التَّناد و (يَوْم يَدْعُ الدَّاعِ) كما جاء فى سورة القَمر ، أى أنه يوم الفزع ويوم الصياح ويوم الدعاء والنداء ، ينادى الناس بعضهم بعضاً من شدة الهول والفزع . ويصور القرآن الناس يخرجون من أجداثهم وقبورهم يوم البعث على نحو ما جاء فى سورة القمر: (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) بعضهم يموج فى بعض، ويكونون حينئذ على نحو ما جاء فى سورة القارعة :(كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) كل منهم يذهب إلى جهة مخالفة لجهة صاحبه كالفراش فإنه إذا طار فى الهواء لا يتجه وجهة واحدة ، بل تتفرق به الوجهات وتختلف ، فهم من شدة الهلع يتفرقون على غير هدى فى اتجاهات شتى لا يلوون . وهذا البعث وما يتلوه من الجزاء والثواب والعقاب نعم وآلاءُ الله على الثقلين ، فإنه سينشئهما نشأة ثانية يفرغ لها ويخلص . والتعبير بالفراغ للدلالة على الاهتمام، لا أن ذلك وعيد وتهديد ، حتى تأخذ تلك النشأة صورتها الإلٰهية العليا .

(يَا مَعْشَر الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا منْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » :

النفاذ الخروج والخلوص . والسلطان القوة والغلبة، وقيل الحجة والبرهان . والآية تصوِّر بالمعنى الأَول أَن الإنس والجن جميعاً فى قبضة الله كما قال فى سورة الزُّمَر : (وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) فهو القادر القهار المالك لكل شىء، وليس لأَحد من دونه أَى ملك أَو سلطان ، فكل شىء بيمينه وكل جِنِّىٍّ وإِنْسِىٍّ فى قبضة قدرته لا يستطيع الفرار من عقابه ولا الهروب من حكمه وقضائه كما قال عزَّ سلطانه فى سورة العنكبوت : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِن دونِ اللهِ مِنْ ولِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ) أَى أَنهم لا يستطيعون أَن يفوتوه ولا أَن يفرُّوا من سلطانه المبسوط على السموات والأَرض لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وبالمثل لا يستطيعون الفرار من قدره الجارى . وعلى تفسير السلطان بالحجة والبرهان قال ابن عباس إِن معنى الآية : إِن استطعتم أَن تعلموا ما فى السموات وما فى الأَرض فحاولوا أَن تعلموه ، ولن تعلموه إِلا ببينة من الله وبرهان . وقد يدخل فى ذلك برهان العلم الذى يمكن الله الإِنسان منه فيصل إِلى القمر أَو إِلى غيره من الكواكب. وعن عبد الله بن المبارك أَحد نُسَّاك القرن الثانى الهجرى أَنه إِذا كان يوم القيامة أَمر الله الدنيا فتشققت بأَهلها، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأْمرهم الربّ فينزلوا إِلى الأَرض فيحيطوا بها وبمن فيها . ثم يأْمر الله السماء

التى تليها كذلك فينزل ملائكتها ، فيكونون صَفًّا من خلف ذلك الصَّفِّ ، ثم السماء الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ثم السادسة ، ثم السابعة ، فينزل الملك الأعلى (يريد الله) فى بهائه ، وتفتح أبواب جهنم فيسمع الجن والإنس زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قطرًا من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة . وهذا هو تفسير الآية فى رأى ابن المبارك وهو ليس تفسيرًا بل موعظة . وقيل إن الملائكة تنزل يوم القيامة فتحيط بجميع الخلائق وتحدق بهم فإذا رآهم الجن والإنس حاولوا الهروب ، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ، وهو معنى قوله تعالى : (لَا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ) فهم لا يخرجون إلا بسلطانه وقدرته ولن يخرجوا . وعلى هذا الوجه من التفسير تصور الآية قدرة الله فى يوم الحشر التى يسيطر بها على السموات والأرض وأن أحدًا من الجن والإنس لا يستطيع الخلوص من قدرته ، ولا مما سيوقع عليه من العقاب والجزاء ، فالجميع مرجعهم إليه . وكأن الآية تعنى فى شطرها الأكبر العاصين من الجن والإنس حين يحشرون ويرتسم أمام أعينهم عصيانهم وعقابهم ، فإنهم يودون لو وجدوا ملجأً فى أقطار السموات والأرض وجوانبهما يفرون إليه أو يتنكرون فيه ، ولكن أنَّى لهم والله ممسك بالوجود كُلّه ولا مخلص من عذابه . وفى هذا المعنى نفسه يقول فى سورة القيامة عن الإنسان العاصى حين يُبْعثُ يوم الحساب إنه يصيح (أَيْنَ الْمَفَرُّ) فقد سُدَّت أقطار السموات والأرض فى وجهه ، ويجيبه عَزَّ شأنه ناهرًا له : (كَلاَّ لَاوَزَرَ إِلَى ربِّكَ يوْمئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) فلا وزر ، أو لا ملجأ ، من الأمر الإلهى المحكم وقضائه ، وإلى الله المستقر والمنتهى والمآب حيث لا حاكم سواه ولا مشيئة غير مشيئته ، فهو صاحب الأمر والسلطان كله ، والجن والإنس يُعْرضُون عليه ويحاسبون ،

وكلٌ ينال جزاءَ عمله ، إذ وكلهم إلى عقولهم واختيارهم وأرسل إليهم الشرائع لتهديهم إلى طريق الخير والفلاح وتبعدهم عن طريق الشر والإثم والضلال ، وحبَّب إليهم التقوى والطاعة وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان . ويكرر القرآن أن (منْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها) أما جزاء الحسنة فعشر أمثالها كما جاء فى سورة الأنعام : (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَها وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ).وهذه الآية فى سورة الرحمن وسابقتها تؤكد ما قلناه فى خلق إبليس والجن من أنهم مكلفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون مثل الإنس ، فمؤمنهم كمؤمننا وعاصيهم كعاصينا. لا فرق بيننا وبينهم فى شيء من ذلك . وقد يقال إن خطاب الجن والإنس فى هذه الآية للتخويف والوعيد والتهديد فكيف يُعَدّ ذلك آلاءَ الله ونعماً ؟ ووجه الإنعام فيه أنه إنذار بالعقاب لكى يرتدع العاصى والكافر ، وينتهى كلٌ منهما عن غَيِّه ، وأيضاً فإن ذلك تربية لهما ومحاولة لإصلاحهما حتى يكفَّا عن غوايتهما . فهو إصلاح وتهذيب وتوجيه إلى الطريق المستقيم . ولا بد أن نعرف أن الغرض الإلٰهى من الإلحاح على ذكر العقاب والثواب فى القرآن لا اتباع طريق الخير طلباً للثواب والانحراف عن طريق الشر فرارًا من العقاب فحسب ، بل أيضاً أن يُخْلص الإنسان لربه إخلاصاً ينسيه الجزاء والثواب والعقاب ، فكل عمل صالح له يقدمه إليه ابتغاءَ وجهه لا خوفاً من عذاب ولا رجاءً فى ثواب ، فحسبه رضا الله ولا جزاء وراءه يطلبه ولا شكورًا ، إنما يطلب القبول والقرب الروحانى . ونعِمَّا ترديد العقاب والثواب فى القرآن ، لا لما قدمناه آنفاً من آلاء فحسب ، بل أيضاً ليوجد مثل هذا الإنسان المثالى الذى يتبادل المحبة مع ربه .

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ ونُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الآية متصلة بالآية السابقة لها بمعنى أنهم لوحاولوا الخلوص أو الخروج حينئذ من أقطار السموات والأرض لأُرْسِل عليهم شُوَاظٌ من نار يمنعهم من الخروج ويحول بينهم وبينه . وقيل الآية لا تتعلق بالنفوذ المذكور قبلها وإنما هى بيان لعقاب العصاة بعذاب النار . والشواظ لهب النار الذى لا دُخَانَ له أو معه . وقيل الشواظ النار والدخان معاً . والنحاس الدخان الذى لا لهب معه ، وبهذا المعنى ذكره النابغة الجَعْدىّ فى قوله :

يضىءُ كضوءِ سِراج السَّليـ ـطِ لم يجعل اللهُ فيه نُحاسَا

والسليط زيت السراج . وقيل النحاس المعدن المعروف مُذَاباً يُصَبّ على رءوس العصاة . والرأى الأول أولى . وقرئ (ونُحَاسٌ) بالضم عطفاً على شواظ ، وهو يتلاءم مع تفسير الشواظ بأنه لهب النار بدون دخان . وقرئ (ونحاسٍ) بالكسر ، وهو يتلاءم مع تفسير الشواظ بأنه اللهب والدخان جميعاً . وقيل النحاس المُهْلُ وهو الماء المغلىّ . وقيل النحاس الزيت المغلى . وأولى كل هذه التفسيرات تفسير النحاس بالدخان لتكرر ذكر الدخان فى وصف عذاب العصاة فى القرآن كما جاء فى سورة الواقعة : (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) والسَّموم حَرُّ نارٍ تنفذ فى مسامّ البدن وتحرق الأجساد ، وتسمَّى بها الريح الحارة فى فلوات الصحراء العربية التى تشوى الوجوه فى الصيف . والحميم الماء الشديد الحرارة .

واليحْموم الدخان الغليظ الأَسودُ سوادَ الفحم، وهو يعقد فوق العُصاة ظلاً ، لا كالظل المعروف ، إذ لا يجد فيه العاصى استرواحاً ولا دفعاً من أذى الحر الشديد ، إنه ظل كريه ، بل هو ليس ظلاً أبدًا ، لأنه لا بارد ولا نافع ، بل مؤذ ، يؤذى النظر ويؤذى التنفس ، بل يخنق الأَنفاس خنقاً . وَوَصَفَ الله هذا الدخان وظله فى موضع آخر فقال فى سورة المرسلات للكافرين المكذِّبين لدينه يصف لهم ما ينتظرهم من العذاب يوم القيامة : (انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ صُفْرٌ) ، والظل ظل الدخان المعقود فوق نار جهنم ، وهو دخان عظيم تتشعب منه ثلاث شعب لعظمه مصعدة فى أعالى النار . وهو ظل ليس ظليلاً بحيثُ يظِلّ من الحر ويروِّح عمن يكتنُّ فيه ، بل يزيد فى عذابه وما يقاسى من شدة النار ، إذ لا يُغْنيه من لفح اللهب أىّ غَناء . ويقول جَلَّ وعَزَّ إن هذا الظل اللافح الملتهب يقذف بشرر عظيم شديد العظم (كَالْقَصْر) واختلف المفسرون فى معنى القصر ، فقيل هو البناء المشيد ، وقيل هو البيت من أدم أو جلد ، وقيل بل القَصْر جمع قَصْرَة كجمرة وجمر وهى الواحدة من الحطب الجزل . وقُرِئَت الكلمة (القَصَر) بفتحتين جمع قَصَرة بفتح الصاد وهى أعناق النخل والشجر أو جذورهما إذا قُطعت ، وقيل القَصَرة الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك ، وكأَنَّ القصَر قطع الخشب العظام ، وكأَنما سميت القطعة منها قصَرة لكونها مقصورة ومقطوعة من الخشبة الممدودة الطويلة . وهو تشبيه يراد به بيان عظم هذا الشرر . وشُبِّه تشبيهاً آخر بالجِمالات الصُّفْر ، والجمالات جمع جمال مثل رجال ورجالات ، وهو تشبيه للشرر فى كثرته وتتابعه ولونه واختلاطه وحركته.

وقيل الجمالات أو الجمالة كما جاء فى بعض القراءات حبال السفن وهو بعيد . وقيل الجمالات قطع النحاس الصُّفْر ، ونُسِبَ هذا القول إلى على ابن أبى طالب . والغرض من وصف النار فى الآية بأنها ذات شواظ ، ومن وصفها فيها وفى الآيات السالفة بأنها ذات دخان غليظ يكتم الأنفاس وذات شرر يملأ القلوب فزعاً ورعباً أن يزدجر الكفار والعاصون ، وأن يرهبوا عقاب الله وعذابه الشديد ، فيدخلوا فى طاعته وفى دينه ،إذ لا يستطيعون الوقوف فى وجهه ولا الامتناع على عذابه ، ولن يستطيعوا التناصر ، إذ لا حول لهم ولا طَوْل أمام قوته وقهره . وفى هذه التبصرة لهم آلاء ينبغى أن يؤدوا شكرها تصديقاً وإيماناً عميقاً .

(فَإِذَا ٱنْشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

معنى وردة : حمراء ، يقال غرفة وردة أى حمراء اللون. وقيل الوردة فى الآية يراد بها الزهرة الحمراء المعروفة أى كوردة على التشبيه . وقيل الوردة الفرس الحمراء على التشبيه أيضاً . وقيل وردة اسم مرة من الورود مثل سجدة من السجود ، أى أن السماء انشقت وردة أو دفعة أو حركة واحدة . والدهان دهن الزيت ، أى أن السماء تصير مثل الدهن ذوباناً وسيلاناً . وقيل الدهان الجلد الأحمر الخالص . والانشقاق التصدع والانهيار والذوبان . وذكر القرآن مراراً هذه الصور إبّان البعث وأنها حين تقع ويختلّ نظام الكون يكون ذلك إيذاناً بالنشور والنشأة الثانية . وهو تارة يتحدث عن انشقاق السماء ، وتارة يتحدث عن انفطارها دلالة على اختلال بنائها ، والله

يصوِّرها ذائبة سائلة كما فى هذه الآية ومثل قوله فى سورة المعارج عن يوم القيامة : (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيباً يَوْم تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ) والمهل دُرْدِىّ الزيت المغلىّ وحثالته . وهو يقابل الدهان بمعنى دهن الزيت فى الآية . وقيل المهل ما ذاب من المعادن حتى سال وتموج من شدة الغليان . ويصوِّر الله ما يحدث فى السماء وأفلاكها وكواكبها بطىّ الصحيفة على ما يُكْتَبُ إذ يقول فى سورة الأنبياء : (يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) ودائماً يصور القرآن انقلاباً ضخماً فى الكون يحدث يوم القيامة فى السموات ، وكذلك فى الأرض إذ ترتجّ بكل مَنْ فيها وتَهْتَزّ اهتزازًا عظيماً ، فتتشقَّق وتُلقى بكل ما حملت فى جوفها من موتى كما قال تعالى فى سورة الزَّلْزَلة : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) ، وكأن الناس دائماً ثقل على الأرض ، ثقل عليها وهم أحياءُ ، وثقل فى جوفها وهم أموات . وما يزال القرآن يعرض علينا هذا الاضطراب الذى سيحدث فى الكون ، وهو اضطراب يُعِد للنشأة الثانية . وهى نشأة تقترن بسقوط أركان الكون وتعطل الشمس والقمر عن إرسال ضوئهما وانتثار الكواكب والنجوم ذات اليمين وذات الشمال ، وزلزلة الأرض زلزالاً شديدًا بحيث يزول كل شاخص عليها من جبل وغير جبل . بل إنه ليصبح هباءً كأنه لم يكن شيئاً مذكورًا. وهو عالم جديد أو هى نشأة جديدة . وينبغى أن نؤمن بكل ما ذكره القرآن فى وصفها دون أن نتمادى فى محاولة تبيُّنها ، فيكفينا ما ردَّده وصوَّره القرآن عنها لسبب طبيعى هو أنها نشأة أخرى غير نشأتنا الدنيوية . وإذا كانت أبحاث الذرة الحديثة أثبتت أن قنبلة يمكن أن تأتى على مدينة كبيرة أو على رقعة كبيرة من الأرض فأولى لله القادر صانع الكون ومنشئه

النشأة الأولى أن يأتى على العالم كله فى لحظة وأن يدمره تدميرًا . على أن التدمير المذكور فى القرآن الكريم ليس تدميرًا للتدمير أو هدماً للهدم من حيث هو ، فسيعيد الله الكون فى نشأة جديدة وخلق جديد . وإذا كانت إعادته الكون بعد هدمه وتدميره وسقوط نظامه الذى يتألف منه وجوده بحيث تتجمع أجزاؤه بعد تحللها وبعد ما يشيع فيها من التحولات والاستحالات التى تتيح لها وجودًا جديدًا فكذلك إعادة الله الإنسان بعد فنائه ، وبعد تحلل أجزائه فى التراب ، فإنه سيُحْدث فيه من التحولات والاستحالات ما يتيح له نشأة ثانية ، قد تكون فيها لأبداننا وأجسادنا صفات أخرى تخالف صفاتنا الدنيوية . وقد يشير إلى ذلك قوله عَزَّ شأنه فى سورة إبراهيم : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسَّمَوَاتُ)، والآية تنص على أن تبدلاً عظيماً سيحدث فى السموات والأرض ، تتغير فيه هيئاتهما وصفاتهما عما كانتا عليه فى الدنيا أو فى النشأة الأولى . ويقول الله مرارًا إن هذا التبديل العام فى دائرة قدرته العليَّة ، فمن أنشأ الكون من العدم وبَثَّ فيه الوجود وأتاح له نظامه وأسراره الكونية فى النشأة الأولى لا يعجزه أن ينشئه النشأة الثانية . وإلا لأعجزته النشأة الأولى ، وها هى ذى تحت أبصارنا تدل دلالة قاطعة على قدرة منشئها الخارقة وأنه لا يعجزه أى شيء فى الخلق إنشاء وابتداء وإعادة وتكرارًا ، يقول جَلَّ ثناؤه فى سورة يس : (أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّموات وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعلِيمُ) . ومعنى ذلك أن الكون كله سينشأ نشأة أخرى مع نشأة الإنسان الجديدة . وكل حديث عن هذه النشأة سواءٌ عما سيحدث فى السماء أو فيها وفى الأرض من شأنه أن يدفع الجن والإنس إلى الشكران لا إلى الكفران والجحود والتكذيب المقيت .

obeikandl.com

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ :

ظاهر الآية يقتضى أن الإنس والجنَّ من العُصاة المذنبين لا يُسْأَلون عن ذنوبهم يوم القيامة : وهو ما يعارض نصوصَ الذكر الحكيم معارضةً صريحة فى مثل آية سورة الحِجْر : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ومثل آية سورة إبراهيم : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ وهو العرض على ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وما يتصل بهذا العرض من الحساب والسؤال وإعطاء كل ذى حق حقه بموازين عادلة ، كما يقول تعالى فى سورة الأعراف : ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ . وقد حاول المفسرون أن يدفعوا هذا التعارض بإجابات مختلفة ، فقيل يوم القيامة يوم طويل فيُسْأَل المذنبون فى بعضٍ منه ولا يَسأَلون فى بعض آخر ، وقيل لا يُسْأَلون إذا استقروا فى النار ، وقيل لا يَسْأَلُ غيرُ المذنِب مَنْ أذنب عن ذنبه . وقيل لا يُسْأَل المذنبون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، وقيل لا يُسْأَل مذنبو هذه الأُمة وأُمَّة الجن عن ذنوب الأُمم الخالية الذين عُذِّبوا فى الدنيا . وقيل لا يُسْأَلون سؤال استعتاب وإنما يُسْأَلون سؤال تقريع وتوبيخ ، وقيل لا يُسْأَلون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تقرير وإيجاب للحجة عليهم . وقيل كان السؤال أولاً ثم خُتم على أفواه المذنبين وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم ، وهو قول ينظر إلى آية سورة النور : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وأولى من هذه الأقوال جميعاً قَوْلُ من قال إنهم مسئولون

حَتْماً ، وإنما المراد أنه لا يقال لمذنب أنت مذنب لتقريره بل يُعْرَفُ ذلك تَوًّا بمجرد بعْثه ومعاده لما سُجِّل عنه فى علم الله بكتاب أعماله على نحو ما عرضنا لذلك فى غير هذا الموضع . ويوضِّح القرآن فى آية الموازين المذكورة آنفاً وما يماثلها دقة الحساب حينئذ وأن الموازين لا تُهْمل أدَقّ الدقائق حتى لو كانت (مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) أو (مِثْقَالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ) . فهناك سؤال ، وهناك حساب ، وهناك عدالةٌ مطلقة ، والناس يُعْرضون على ربهم وقد عُرف ظاهرهم وباطنهم وما أخفتْ صدورهم ، وكلُّ شخص يُدْعَى بكتاب أعماله ، ويتسلمه بيده ، فإن أُعطيه بيمنه كان من أهل الجنة وإن أُعطيه بشماله كان من أهل النار على نحو ما تصوِّر ذلك آيات الحاقَّة فى الحديث عن يوم القيامة والعرض على رب الكائنات : (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَأَما مَنْ أُوتِى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَءُوا كِتابِيَهْ إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاَقٍ حِسَابِيهْ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . . وَأَمَّا مَنْ أُوتِى كِتابه بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتنِى لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَاحِسَابِيَهْ يَالَيْتَهَا كَانَت الْقَاضِيَةَ) وكل ذلك يعْنى الحساب وأن الإنسان يجد أعماله يوم القيامة منشورة أمامه بتفاصيلها جميعاً ، وفى ذلك يقول جَلَّ شأنه فى سورة الكهف :(وَوُضِع الكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِين مُشْفِقِينَ مِما فِيهِ ويَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولَا كَبِيرةً إِلَّا أَحْصَاهَا ووجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ ربُّكَ أَحَدًا) . وهذا كله يُرَاد به تنبيه الإنسان على ما ينتظره من السؤال والحساب وأنه معروض على ربه ليوفِّيه جزاءه على ما كسب من أعمال خيرة واكتسب من أعمال سيئة . أما المطيع ، فله الجنة والنعيم ، وأما العاصى فله النار والجحيم . بيان ربَّانى رحيم لأفراد الثقلين كى يختاروا لأنفسهم ، وكى

يتركوا طريق العاصين الآثمين إلى طريق الطائعين المتقين .

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنَّواصِي والْأَقْدام * فَبِأَيِّ آلاَءِ ربِّكُمَا تُكَذِّبان) :

المجرمون هم المذنبون الذين اقترفوا السيئات . والسِّيما العلامة ، وتُمَدُّ فيقال السِّيماء ، وسيمَا الشخص ما يبدو على وجهه أو على هيئته بصفة عامة ، وفى سورة الفتح : (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ). ويردِّد القرآن أن الكفار يحشرون يوم القيامة سود الوجوه سواد الدخان أو سواد القطران ، فى حين تكون وجوه المؤمنين مبيضة ضاحكة مستبشرة . وفى سورة طه : (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً) والمراد زرقة الأعين ، وهى سِيما بشِعة : اجتماع الوجه الأسود مع العيون الزرقاء . وقيل الزرقة فى الآية كناية عن العمى وفقد البصر. والنَّواصى جمع ناصية ، وهى الشَّعْر فى مقدَّم الرأس . والمعنى أن الزَّبانِية وهم جنود الله من الملائكة القائمين على عذاب الكفار يأْخذون بنواصيهم وأقدامهم فيلقونهم فى النار أو يجرُّونهم إليها آخذين بنواصيهم تارة وبأقدامهم تارة ثانية أو يجمعون بين نواصيهم وأقدامهم فى سلاسل ويسحبونهم على وجوههم أو على ظهورهم . وصوَّر الله ذلك فى سورة غافر ، فقال : (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلاَلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ فِى الحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ) والأغلال والسلاسل القيود يُسْحبون بها فى جهنم ، ويُلْقَى بهم فى النار حَطَباً لها ووقودًا . ويصوِّر الله فى سورة الحاقة كيف يأْمر خزنة النار من الزبانية بسحب الكافر الأثيم إلى الجحيم يقول عَزَّ سلطانه: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الجَحِيمَ

صَلُّوهُ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ) وهو يَأْمرهم أَن يَغُلُّوهُ من الغُلّ وهو القيد أو الطوق من الحديد ، أى يضعوه فى يده أو فى عنقه أو يجمعوا به يديه إلى عنقه ، ثم يُصْلوه النار ، فيدخلوه فيها ليتعذب بها ، جَزَاءً وفَاقاً لكفره وعناده . ويقول لهم ضعوه فى سلسلة ذرعها أو طولها سبعون ذراعا حتى تلفّ جسدَه حلقاتُها ، وحتى يضيَّق عليه أشد التضييق فلا يستطيع حراكاً . وذكرَ الله أن طول السلسلة سبعون ذراعاً ، ويشيع عند العرب استعمال السبعة والسبعين فى التكثير ، كما قال جَلَّ ثناؤه فى سورة التوبة لرسوله : (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِين مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) أى مرات كثيرة . وكأن الله عَزَّ شأنه إنما أراد بذكر السبعين ذراعاً وصف السلسلة بالطول ، لأنها إذا طالت كان إرهاق الكافر بها أشد . ويضيف الله إلى ما تقدم من عذاب الكفار وسيماهم الكئيبة أن سرابيلهم وأقمصتهم لن تقيهم النار ، فهى ليست ثياباً ولا أردية ، إنما هى قَطِران كما جاء فى سورة إبراهيم : (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ) ، فهم موثَّقون فى الأغلال والأصفاد وقد طُليت أجسادهم بقطرانٍ لَزِجٍ كريه الرائحة سريع الاشتعال بالنار . وهى كلها صور تهول وترعب وتفزع ، فمن قطران إلى سواد وجوه إلى جَرٍّ وسحب فى الأغلال والسلاسل الثقال . والله يصور كل هذا النكال بالكفار ليزدجروا وينتهوا عما هم فيه من غَىٍّ وكفر وضلال فإن غداً أسود خطيراً ينتظرهم ، ولن يفلتوا من عقاب الله إن هم استمروا فى شركهم وعنادهم ولم يراجعوا أنفسهم فى دنياهم ولا ثابوا إلى رشدهم . وقد فتح الله لهم أبواب التوبة على مصاريعها كى يقرُّوا على أنفسهم بخطيئاتهم وآثامهم وذنوبهم

ويتوبوا إليه توبة نَصوحاً، يتخلصون بها من كل أوزارهم ، ويدخلون فى طاعته فيفوزون بعفوه ومغفرته . وما من موضع فى القرآن ذكر الله فيه العقاب إلا شفعه قبله أو بعده بقبول التوبة والعفو والغفران من مثل قوله فى سورة غافر : (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ).وقوله فى سورة طه : (وإنِّى لغَفَّارٌ لِمنْ تَابَ) وقوله فى سورة الزُّمَر : (إنَّ الله يغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً). وهى دعوة رحيمة تقترن دائماً بوصف عقاب الكفار ليتدبروا أمرهم وغدهم ، وليسارعوا إلى طريق الهدى والفلاح ، رحمات وآلاء من الله على عباده ينبغى أن يَتَلَقَّوْها بالشكر والعرفان .

(هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

جهنم النار ، وهو أحد أسمائها الدائرة فى الذكر الحكيم ، والكلمة مشتقة من الجهامة ، وهى قبح الوجه وغلظه . واتخذها القرآن عَلَماً على نار الله الموقدة كما فى هذه الآية ، وتتردَّد فيه ستة أسماء أخرى قيل إنها مع جهنم دَرَكاتُ النار السبع ، وهى الجحيم ، من الجَحْمة وهى تأجُّج النار ، كما فى آية سورة المائدة : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ). وسقر وقيل إنها اسمٌ للطبقة السادسة من جهنم ، وفى سورة المدَّثِّر : (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ) . والسعير جمر النار من السعر وهو حَرُّها وتوقدها ، وفى سورة الأحزاب : (إنَّ الله لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعدَّ لَهُمْ سَعِيرًا) . واللَّظى وهى اللهب قيل إنها اسم للطبقة الثانية من جهنم ، وفى سورة المعارج : (كَلاَّ إنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى) تنزع أطراف الجسم لشدة

حرارتها . والاسم السادس الحُطَمة من الحطْم وهو التدمير ، وفى سورة الهُمَزة : (كلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ) . والاسم السابع الهاوية سميت به النار لبعد عمقها ومهواها ، وفى سورة القارعة : (وَأَمَّا منْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيهْ نارٌ حَامِيَةٌ) وأُمُّه مأْواه على التشبيه كأنها تتشوّق إلى ضَمِّه إلى صدْرها على نحو ما تتشوّق الأُمُّ إلى ضَمِّ ابنها وأَخْذِه بين ذراعيها ومعانقته . والقرآن الكريم يصوِّر عذابَ النار صورًا مفزعة مرعبة تملأُ القلوب هَلَعًا بما يرسم من أهوالها على شاكلة وصفه لعقاب الكافرين فى سورة الحج (قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رءُوسِهِمُ الحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ) فليس لهم ثيابٌ تفصَّل لهم سوى ألسنة النار التى تحيط بأجسادهم وتحرق جلودهم . و (الحميمُ) وهو الماء الحار أو الفِلِزُّ المذاب يُصَبّ فوق رءوسهم فيذيب جلودهم وأحشاءهم ، ويحاولون الفرار من هذا العذاب ، ولكن أنَّى لهم فمطارقُ الحديد بأيدى خَزَنة جهنم وهى تتلقاهم كلما فكَّروا فى الخلاص والفرار . ويقال لهم : (ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) بما أشركتم بالله وأسرفتم فى المعاصى والخلاف على أوامره ونواهيه ، وبما اقترفتم من الخطايا والموبقات فحَقَّتْ عليكم اللَّعْنَةُ وحَقَّ عليكم غضب الله وعقابه الأليم . وتتوالى فى الذكر الحكيم صُوَرُ النَّصَب والشقاء الذى يعانيه الكفار والعاصون فى الجحيم ، فهم يتضوَّرون جوعاً ويلهثون عطشاً ، وينادون أهل الجنة إلى أن تُبَحَّ أصواتهم أَطْعِمونا مما أَطْعَمكم الله واسقونا مما سقاكم ، ولا مغيث ولا مجيب ، يقول جَلَّ شأْنه فى سورة الأعراف : (ونَادَى أَصْحَابُ

النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) وهو إذ حَرَّمهما عليهم أبدلهم منهما أطعمةً وأشربةً تَشْوِى بُطونهم وأحشاءهم شَيًّا . أما أطعمتهم فمنها الغِسْلين كما فى سورة الحاقة فى عذاب الكافر الأثيم : (فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هٰهُنَا حَمِيمٌ وَلاَ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ) وهو من أشجار النار الملتهبة العيدان التى تحرق كل ما تشتمل عليه حرقاً . ومن أطعمتهم الضَّرِيعُ وهو يابس الشَّوْك ، يَنْبُتُ لهم فى النار ، ويُلْهبهم الجوعُ فيلتهمونه ولا يفيدون منه غذاء ، إنما يفيدون ألماً وعذاباً كما صوَّرت ذلك آيتا سورة الغاشية : (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِنْ جُوعٍ) . وأبأس أطعمتهم وأشدُّها عذاباً ونكْرًا شجرةُ الزَّقُّومِ وفى سورة الدخان : (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِى الْبُطُونِ كَغَلْيِ الحَمِيمِ) وهى مثل الضَّريع والغِسْلين من أشجار النار ، ولا وجود لها فى الدنيا ، إنما تنبت فى الجحيم طعاماً للكافرين حين يعَضّهم الجوع ، فيضطرون اضطرارًا إلى الطعام منها يريدون أن يملئوا بطونهم فيملئوها بما يشبه النحاس والفلزّات المنصهرة ، حتى ليغلى مثلها فى الأحشاء كغَلْيِ الماء الحارِّ المتناهى فى الحرارة . ويتوعَّد الله بها عُتاةَ الكافرين المعاندين الذين جحدوا الشرائع والبعث والمعاد ولقاء الله فى اليوم الآخر ، يقول فى سورة الواقعة : (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُون مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِن الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) فسيبلغون من ضراوة الجوع أن يمدُّوا أيديهم إلى هذا الشجر ويفتحوا أفواههم ويزدردوا أعواده وثماره ، وهم لا يزدردون ولا يبتلعون إلا جمرًا ملتهباً ، ويندفعون تَوًّا يدفعهم العطش الضارى إلى الحميم أو قل إلى الماء المغلىّ الذى

لا يَرْوى غُلَّةً ولا ظمأً ، فيشربون ويعاودون الشرب مرارًا ولا يرتوون كالهيم أو كالإبل العِطاش التى يُصيبها داءُ الهُيام الشبيه بالاستسقاء فتشرب حتى الموت ولا تُحِسُّ رِيًّا ، وهل يمكن لِجَمْرِ الزَّقُّوم التى امتلأَتْ منه بطونهم أن تطفئه نارُ الحميم ؟ إنها تزيده توقدًا ، وتزيدهم ظمأً . ويصوِّر الله هذه الشجرة صورة بشعة ، فيقول فى سورة الصافات : (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطونَ ثُم إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ) والشَّوْبُ الخلط. والمزج ، والطَّلْعُ للنخلة ، فاستعير لما تحمله شجرة الزَّقُّوم من ثمار . ويقول الله إنها تنبت فى قاع الجحيم ، ثم تمتدّ ساقها وغصونها فى دركات النار ، ويتراءى طَلْعها فى صورةٍ كريهة قبيحة المنظر أشد ما يكون القُبْح مرْأى ومنظرًا ، صُورة أشبهُ ما تكون بصورة رءوس الشياطين المتناهين فى القبح والتى يشبِّه الناس بوجوههم قبيحَ الصورة منهم ، فيقولون كأن وجهه وجه شيطان تعبيرًا عن بشاعته ، وقد يقولون إن رأس هذا الشخص رأس شيطان تَبْشيعاً له وتقبيحاً . وكلما ضَغَط. الجوع الخانق على الكفار الجاحدين أكلوا من هذه الشجرة أو من الضريع أو من الغسلين ، ويشتعل العطش فى بطونهم ، فيستغيثون ، ويُغَاثون بماءٍ كالمُهْل شديد الحرارة يَصْهر ما فى بطونهم . ويحاولون الفرار من هذا العذاب فيفرون من الجحيم إلى الجحيم أو إلى حميم متأجج ، كما قال تعالى : (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) فهم يطوفون أو يدورون بين الجحيم والحميم الآنىّ المضطرم ، وكأنما يحاولون الخروج فيضربهم خزنة جهنم بمقامع من حديد . وليس الحميم شرابَ أهل النار وحده ، فمن شرابهم الصَّديد وهو ما يسيل من أجسادهم وحروقهم ، شرابٌ تشمئزّ منه النفوس ، شرابٌ فظيع لا يطيقه إنسانٌ ، وفى ذلك يقول جلَّ شأنه فى سورة إبراهيم : (وَخَابَ

كلُّ جَبَّار عَنِيد منْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يكَادُ يُسِيغُهُ ويَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذابٌ غليظٌ.) . وهذا الماء مع نَتنه ورائحته الكريهة يضطر كل جبار بسبب ظمئه القاتل أن يتجرَّعه ويشربه نُغْبَةً بعد أُخرى، وهو لا يكاد يُسيغه ، إذ يتعثر فى حلقه غُصصًا مميتة ، وكأَن الموت يطلُّ عليه من كل جانب (وَمَا هُو بِمَيِّتٍ) ، ويأْخذه من ورائه (عَذَابٌ غَلِيظٌ.) عنيف أَشدَّ ما يكون العنف أَخْذًا وبِيلا . ومن شراب أَهل النار الغَسَّاق وهو ماء مظلم منتن . وقيل عَيْنٌ فى جهنم يسيل إليها صَديد الكفار وقيل بل الصَّديد نفسه ، وقيل إنما هو الزَّمْهرير أَو البرد الذى لا يُطاق . ولم يُذْكَرْ فى القرآن إلا مَرَّةً واحدة فى سورة النبأ : (إِنَّ جَهَنَّم كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآباً لَابِثِين فِيهَا أَحْقَاباً لاَ يَذُوقُوَن فِيهَا برْدًا وَلاَ شَرَاباً إِلَّا حَمِيماً وغَسَّاقاً جَزَاءً وِفاقاً) . والبرد اخْتلف فيه ، قيل النوم ، وقيل كل برد بما يشمل برد الريح وبرد الظل وبرد النوم . وقيل برد الريح وحده ويَتَّسق مع تفسير الغَسَّاق بالزمهرير، وكأَن القرآن خَوَّف بزمهرير الثلج كما خَوَّف بلهيب النار ، وبذلك يسقط. قول بعض أَعداء الإسلام بأَن حرَّ الجزيرة هو الذى جعل العذاب فى الدين الحنيف مقصورًا على النار ، ولو مَدُّوا أَعينهم إلى أى كتاب جغرافى لعرفوا أَن فى الجزيرة جبالا يعلوها الثلج على نحو ما هو معروف ببادية الشام ، وتنزل الثلوج ويشتد الزمهرير ببادية العراق ، فحتى لو كان القرآن خاصًّا بالعرب لتوعدهم بالبرد القارس كما توعدهم بالنار ، فما بالنا إذا كان قد توعدهم فعلاً به كما فى هذه الآية ، وما بالنا إذا كان الرسول مبعوثاً للناس كافة كما مَرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وقد ردَّدَ ذلك القرآن كثيرًا قائلا إنه جاء

(نذيرًا) لِلْبَشَرِ . وتفسير الغَسَّاق بالبرد الشديد رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود الصحابيِّ الجليل إمامِ أهل الكوفة كما رُوِيَ عنه أنه قال إن عذاب الغَسَّاق أشدُّ على الكافرين من عذاب النار آلاف المرات ، ولعل مما يشهد لهذا التفسير أن الله عَزَّ ذكره وصفَ طَقْسَ الجنة بأنه معتدل لا حرفيه كحر النار ولا برد كبرد الصقيع . إذ يقول فى سورة الإنسان عن أهلها وما هم فيه من نعيم : (مُتَّكِئِين فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يرَوْنَ فيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهرِيرًا) . وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اشتكتِ النارُ إلى ربها فقالت : أكل بعضى بعضاً فنفِّسْنى ، فأَذِن لها فى كلِّ عام بنَفَسَيْن : نَفَسٍ فى الشتاء ونَفَسٍ فى الصيف ، فأَشدُّ ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم وأَشدُّ ما تجدون من الحَرِّ من حرها » . وتوقَّفَ بعض المفسرين إزاءَ ما جاء فى آية النبأ : (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً) لما قد يدل ظاهرها على أن مقام أهل النار فيها موقوت بأَحقاب معدودة ، فقيل إن أحقاباً موصولة بالآية التالية لها بمعنى أنهم يلبثون فى النار لا يذوقون أحقاباً فيها شيئاً سوى الحميم والغساق . وقيل إن المراد بالأَحقاب المدد المتصلة غير المنقطعة بمعنى أنهم يلبثون فى النار إلى أبد الآبدين لما ردّده القرآن مرارًا وتكرارًا من أنهم خالدون فيها أبدًا من مثل قوله تعالى فى سورة الأَحزاب : (إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُم سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) وهو القول الصحيح . وذهب بعض المتصوفة إلى ظاهر الآية وأن لعذاب الكفار نهايةً فى الآخرة وَرَووا فى ذلك خبرًا عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول ليأْتين على جهنم زمان تصفِّق أبوابها أو تخفق أبوابها ليس فيها أحدٌ بعد أن لَبِثَ فيها الكفار أحقاباً . وعلَّل بعضهم ذلك بأنه بعد مضى الأَحقاب المتطاولة يألف الكفارُ عذاب

النار ولا يعودون يتألمون لتعودهم إياه طويلا ، بل إنهم ليتلذذون به ويستعذبونه (هكذا قال بعض المتصوفة) حتى إنه لو هبَّ عليهم نسيم من الجنة استكرهوه ولم يستروحوه ! وبذلك ينتهي عذاب النار ويغفر الله لجميع الكفار كما قال في سورة الزُّمَر : (إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) . والحق أن آيات الذكر الحكيم تشهد شهادة قاطعة بأن الكفار خالدون في النار خلودًا مؤبدًا . ومثل آية سورة النَّبأ السالفة ينبغي أن يحمل على تتابع الحقب إلى ما لا نهاية ، ومثلها آية سورة هود : (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُم فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) ، فإن الاستثناء فيها يُراد به معنى الشرط لبيان أن كل شيء منوط بمشيئة الله وإرادته . وبذلك يفيد الاستثناء الدوام وكأنه مكان (أبدًا) في مثل قوله تعالى في سورة النساء : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُم وَلَا لِيَهدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبدًا) وقوله في سورة الجنّ : (وَمَنْ يَعصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) . أما الاستشهاد بقوله تعالى : (إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) فهو مقتطع من آية سورة الزُّمَر : (قُل يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وواضح أن الآية موجَّهة إلى المؤمنين المذنبين ، ولذلك يقول لهم الله لا تَيْأَسوا من رحمتي ، فإنني سأغفر ذنوبكم ، فهو غفران على التخصيص لا على عمومه بحيث يشمل الكافرين المذنبين ، وكأن هذا عهد من الله ألا يخلِّد مؤمناً في النار . وعند أهل السنة أن المؤمنين طائفتان : فائزون وعاصون ، والفائزون يرون النار وهم على الصراط ، والعاصون يعذَّبون في النار بعض العذاب على مقدار ذنوبهم ، أما الكفار فيُزَجُّ بهم في أطباقها إلى أبد الآبدين ! وبهذا التصوير فُسِّرت آية

سورة مريم : (وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مقْضِيًّا) والضمير يعود على جهنم . وكأن الفائزين يَرِدونها بمرورهم على الصراط الممدود عليها ، والعاصين يَرِدونها حَقًّا ولكن إلى أَجل ، حتى يغفر الله لهم ، أما الكفار فيردونها ويظلون بها دار إقامة لهم أبديَّة . وقيل ورودها الجلوس حولها ، وقيل إذا دخلها المؤمنون كانت عليهم بَرْدًا وسلاماً كما كانت على إبراهيم . ومن الممكن أن تكون الآية موجَّهَةً إلى الكفار وأن أحدًا منهم لن يُفْلت منها أبدًا . على كل حال لن يخلَّد عصاة المؤمنين فى النار ، بل إن الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم سواء تابوا أو ماتوا من غير توبة فى رأى أهل السنة . أما المعتزلة فاشترطوا التوبة ، لأن عذاب الله فى رأيهم تابع لحكمته وعدله لا لجبروته وسلطانه . ولذلك تُنْكر طائفة منهم ما ارتضاه أهل السنة من شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن استحق لذنب من الذنوب عذاب الله لتعارض ذلك فى رأيهم مع العدل الإلهى المطلق . أما الكفار فإن تابوا من الكفر قبل أن يحضرهم الموت توبةً نصوحاً قبل الله توبتهم ، وإن ماتوا مصرِّين على كفرهم فلن يغفر الله لهم كما قال فى سورة النساء: (إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُون ذٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) . وهؤلاء المشركون هم الذين أعدَّ الله لهم مشاهد العذاب آنفة الذكر ، فقد أبقوا عن طاعته وعاشوا فى الخطيئة كأبشع ما تكون المعيشة ، فاستحقوا أن يعذَّبوا أبشع عذاب ، وألاَّ تأخذ الله فيهم رحمةٌ أو رأفة أو يمسهم بضرب من الرفق والعفو والغفران ، إنهم ليسوا أهلاً إلا للعقاب والنكال وأن يعيشوا فى النار حَطباً لها ووقودًا ، يَطْعمون من شجرها البشع جمرًا ملتهباً ، ويتجرَّعون من مائها صديدًا بَشِعاً ، وكلما احترقت جلودهم بدَّلهم الله غيرها ليظلوا فى نفس النَّصب والشقاء

والعذاب ، وفى ذلك يقول عَزَّ من قائل فى سورة النساء : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودا غَيرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيماً) . وهى نفسها السرابيل المذكورة فى آية سورة إبراهيم : (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَومَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِن قَطِرَانٍ) ، سُمِّيتْ سرابيلهم كما مر بنا جلودًا للزومها جلودَهم على المجاورة . وهذه المشاهد المرعبة من عذاب الكفار يوم القيامة وفى الحياة الآخرة يضيف إليها القرآن مشاهد أخرى تصوِّر ما يكونون فيه من ظلماتٍ بعضها فوق بعض ، فى حين يعيش أهلُ الجنة فى نور من فوقه نور ، مما يجعل المنافقين يتوسلون إليهم أن يقتبسوا من نورهم كما جاء فى سورة الحديد : (يَومَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُم فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَينَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) فهم وأمثالهم من الكفار يلفّهم ظلام دَامِسٌ فيتجهون إلى أهل الجنة يتضرَّعون إليهم أن ينظروا نحوهم ليأخذوا من نورهم قبساً وَهَّاجاً ، فيُقال لهم : انظروا وراءكم . فيعودون يظنون أن من ورائهم نورًا فلا يجدون شيئاً ، فيرجعون فيجدون سورًا صفيقاً ضُرِب بينهم وبين المؤمنين ، له بابٌ باطنه من قِبَل أهل الإيمان فيه الرحمة ، وظاهره من قبلهم وقبل أمثالهم من الكفار فيه العذاب . ودائماً يقترن بالعذاب الحسِّىِّ عذابٌ نفسىٌّ ، فالكفار لا يَشْقون بالظلام ولا بالنار وتحريقها ولا بالزَّقُّوم وطعامه الكريه ولا بالصديد وشرابه فحسب ، بل يَشْقون أيضاً بأهوال نفسية تُعَذِّب بها نفوسهم كما تُعَذَّبُ أبدانُهم ، ولذلك تتكرَّر كلمة (ذوقوا) و (ذُق) و (ليذوقوا العذاب) للدلالة

على أن تعذيب الأبدان يرافقه تعذيبُ النفوس وإيلامها. ويصوِّر الله أعمالهم في الدنيا منصوبةً أمام أعينهم فى الآخرة حسراتٍ ، يقول جَلَّ شأنه فى سورة البقرة : (كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعمَالَهُم حَسَرَاتٍ عَلَيهِم وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) ، فهم يتحسرون فى الآخرة على ما أجرموا فى جَنْب الله وما عملوا من سيئات كما لم يتحسر أحد ، حسرات تملأ نفوسهم شقاءً وعناءً وآلاماً ممضة ، لا سبيل إلى التخلص منها ، بل دائماً تُصَبُّ عليهم صَبًّا ، كما يُصَبُّ الهوان والإحساس بالصَّغار والحقارة حتى ليصبح ذلك جزءًا لا يتجزأ من العذاب ، ولذلك تكرَّر وصفه فى القرآن بأنه (عَذَابٌ مُهِينٌ) إذ يذوق فيه الكفار كل ألوان الهوان (وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) لا تكاد تبقى فيهم بقية من إنسانيتهم ، بل إنه لم يعد لهم منها شيء سوى الندم والحسرة والشعور العميق بالذل والهوان (ثُمَّ يَومَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِم) خزياً لا نهاية له . وكل ذلك العذاب النفسى والحسى وصفه الله فى القرآن لا ليصور انتقامه من الكفار العصاة وإنما ليزجرهم عن ارتكاب المعاصى ويرغبهم فى الطاعات كما جاءَ فى سورة الأنفال : (لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويَحيَا منْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) وصوَّر ذلك أيضاً فى آية الإسراء : (وَنُخَوِّفُهُم فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيرًا) ولا شك أن هذا التخويف والوعيد نعمة أو نعم عظيمة للجن والإنس كى يزدجروا عن غواياتهم وينتهوا عن ضلالاتهم ، ويسلكوا طريق النجاة قبل فوات الأوان .

(وَلِمنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

بعد أن عدَّد الله جَلَّ شأنه النعم الدينية والدنيوية وأوضح عذابَ الكفار

بالزجر عن المعاصى واللحاق بالمتّقين مما يؤدّى إلى نعم الله السابغة ، إذ كان بيان ذلك ناهياً عن العصيان والكفر والفسوق وداعياً إلى الطاعة. بعد تصوير ذلك كله شَرَعَ الله يعدّد النعم التى يُسبغها على عباده المؤمنين المطيعين فى الآخرة . والخوف توقع مكروه بعلامات أو أمارات مظنونة أو متيقنة ويقابله الرجاء وهو توقع محبوب بمثل هذه الأمارات والعلامات المتيقّنة والمظنونة ، وهو فريضة على كل مؤمن ، يقول تعالى فى سورة آل عمران : (وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ويقول فى سورة «المؤمنون» : (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُم بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُم بربِّهم لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِم رَاجِعُونَ أُولٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيرَاتِ وَهُم لَهَا سَابِقُونَ) فهم دائماً على خوف وخشية ووجَلٍ من عقاب الله ومن أن لا يقبل منهم مايعملون ، وهم لذلك يسارعون ويسابقون إلى الخيرات والأعمال الصالحة ، وهم مع ذلك مشفقون أن تُرَدَّ عليهم كما جاء فى سورة السجدة : (يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً) خوفاً من العقوبة وطمعاً فى المثوبة . وعلى نحو ما يدفعهم هذا الخوف إلى الخير يصرفهم عن الشر وكل ما يجرّ إلى الإثم . وفى الحديث أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : «قلتُ يا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (والَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أهو الذى يَسرق ويشرب الخمر ويزنى ؟ قال : لا يا ابنَةَ الصِّدِّيق ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدّق ويخاف ألا يُقْبَلَ منه». فالخائفون الوجلون هم الذين يعملون الصالحات ويخشون ألا يتقبّلها الله منهم لا الذين يأتون المعاصى ثم يخافون الله ويخشونه ، فخشية هؤلاء وخوفهم ليسا من باب هذا الخوف المحمود الذى يجنّب صاحبه الآثام ظاهرًا وباطناً والذى يحثّه

على عمل الصالحات والاجتهاد فيها ، ولذلك قيل : لا يُعَدُّ خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً . وهو ليس استحضاراً ولا استشعاراً للرعب من عقاب الله ، وإنما هو مراقبة من المسلم لربِّه فى كل ما يقول وكل ما يفعل لأنه معروض عليه يوم القيامة ومجزىٌّ بما قدَّمتْ يداه . وكأنه ضَربٌ من قلق المسلم على مصيره قلقاً يوجد فى دخائل نفسه الضميرَ الحىَّ الذى يستشعر صاحبه الخشية من عذاب الله فى سره وعلنه ، كما يستشعر الرجاءَ والطمع فى نعيمه وفراديسه . وفى الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إنى أتقاكم لله وأشدّكم له خشية » . ويروى أن أبا بكر الصِّدِّيق فكَّر ذات يوم فى القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطَىِّ السموات ونَسْف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب فقال : « وددت أنى كنت خُضَرًا من هذه الخُضَر تأْتى على بهيمة فتأكلنى وأنى لم أُخْلَق » . وهى صورة عظيمة لما زَرع القرآن الكريم فى ضمير الصِّدِّيق من الخوف الصادق المثمر ، حتى ليصبح بعد الرسول مثلا أعلى للمؤمنين فى التقوى والعبادة والأعمال الصالحة ، ومع ذلك يرهب الله ويخافه ويخشى لقاءه . وفيه وفى أمثاله ، بل أيضاً فيمن لا يبلغون منزلته من المؤمنين الذين يكفُّون أنفسهم عن المعاصى ويتحرَّون الطاعات خوفاً من الله ورهباً ، نزلت الآية التى نحن بصددها ونزل مثل قوله تعالى فى سورة فُصِّلت: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) . وكلمة (مَقام) فى الآية مصدر بمعنى القيام ، والمراد إذن بمقام الربِّ إشرافُه واطلاعه وكونُه مراقباً للإنسان مهيمناً عليه لا يخفى عنده شىء من أمره أو من قوله وفعله كما وصف نفسه فى سورة الرَّعد بأنه (قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بما

كَسَبَتْ) بمعنى أنه رقيب على كل نفسٍ حفيظ. عليها عالم بكل ما عملتْ فى دنياها من خير أو شر ومجازيها به لا يظلمها مثقال ذرة . وقيل بل كلمة (مقام) اسم مكان والمراد مكان الخلق وموقفهم الذى يقفون فيه للعرض يوم الحساب (يَومَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) . وكأن تقدير الكلام فى كلمة (مقَامَ رَبِّهِ) مقام الله الذى يقوم فيه العباد للحساب ، وهو مقام الحشر والمعاد . وينبغى أن نعرف أن الله جَلَّ جلاله منزّه عن القيام والمكان ، لما يؤول إليه ذلك من تشبيهه بالعباد . وكل ما جاء فى القرآن مما قد يفيد تشبيهاً أو تجسيدًا إنما هو تمثيل لعظمة الله وجلاله. وكذلك ذكرُ المقام هنا فلا قيام ولا وقوف ولا واقف إنما هو تصوير لعظمته وجلاله ، وإنه ليجلّ عن أن يحيط به شيء أو تحيط به حواس . وأصل الجنة البستان الذى تغطّى أشجاره رقعة من الأرض ، وقد سمى الله بها دار عباده المتقين فى الآخرة ، وقال إن عرضها كعرض السموات والأرض ، يقول فى سورة آل عمران : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وقد نبَّه جَلَّ شأنه بسعة عرضها على أن سعة طولها لا تقف عند حَدٍّ ، وقال ابن عباس : «تُقْرَنُ السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تُبْسَطُ الثياب ويُوصَل بعضها ببعض ، فذلك عَرْضُ الجنة ولا يعلم طولها إلا الله » ، ويُرْوَى أنه قيل للرسول عليه السلام : إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال : «سبحان الله ! فأين الليل إذا جاء النهار » وهو يشير إلى قدرة الله التى لا نهاية لها وأنه لا غاية لسعة مملكته فى الدنيا والآخرة . وَرَأْىُ أهل السنة أن الجنة مخلوقة وموجودة لقوله تعالى بعقب الآية السالفة : (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) فهى معدة مهيَّأة قائمة ، وذهب

المعتزلة إلى أن التعبير بالفعل الماضى بدلا من المضارع المستقبل للدلالة على تيقن هذا الإعداد وأنه واقع لا محالة ، وقالوا إن الجنة غير مخلوقة الآن بل مثلها مثل النار يبتدئ الله خلقهما إذا طَوَى السمواتِ والأرض ، لأنهما دارا الجزاء بالثواب والعقاب ، فخَلْقهما إنما يكون بعد تكليف العباد باتِّباع شرائعه وانقضاء هذه الدنيا حتى لا تجتمع دار التكليف ودار الجزاء فى زمن الدنيا كما لا يجتمعان فى زمن الآخرة . وعلى نحو ما ذكَر القرآنُ عَرْضَ السموات والأرض ذكَرَ أن لها أبواباً عدة ، يقول الله جَلّ شأنه فى سورة الزُّمَر : (وسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبوَابُهَا وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُها سَلاَمٌ علَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) وخَزَنَتُها ملائكتها الحافظون لها ، ولم يذكر الله عدد أبواب الجنة ، وفى الحديث : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيُسْبغ الوضوءَ ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبدُه ورسوله إلا فُتحت له أبوابُ الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء » . ولعل الرسول لا يقصد العدد بالتحديد ، إنما يقصد كثرة أبواب الجنة وأن المؤمنين يستطيعون الدخول إليها من أى باب يشاءونه بإذن الله . وقد وُصف جوّها بأنه معتدل ـ كما أشرنا إلى ذلك فى الحديث عن عذاب أهل النار ـ ليس باردًا شديد البرودة ولا حارًّا شديد الحرارة كما قال تعالى فى سورة الإنسان : (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً) . والجنة ليست رياضاً وبساتين فحسب ، بل هى أيضاً قصورٌ شامخة ، كما قال تعالى فى سورة الزُّمَر : (لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ) وقال فى سورة العنكبوت : (والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً) ، والغرفة العِلِّية أو الحجرة المشرفة ، وهى غرف بعضها فوق

بعض ، طبقات فوق طبقات مَشِيدات مزخرفات محكمات باذخات ، وفى الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة لغُرَفاً يُرَى ظُهُورُها من بطونها وبطونُها من ظهورها » فقام إليه أعرابىٌّ فقال : لمن هى يا رسول الله ؟ قال : « هى لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلَّى لله بالليل والناس نيام » وفى الحديث أيضاً : « إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدُّرِّىَّ الغامر من الأفق الطالع من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » فى الدرجات ، فقال المستعمون إليه : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى والذى نفسى بيده ورجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين » . ورُوِىَ أنه قيل للرسول : حَدِّثْنا عن الجنة ما بِنَاؤها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها (طلاؤها) المسك الأذفر . (ذكى الرائحة) وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، منْ يدخلها ينعم ولا يَبْؤُس ، ويخلد ولا يموت ، لا تَبْلَى ثيابه ، ولا يَفنَى شبابه » .

واختلف المفسرون فى المراد بالجنتين فى الآية الكريمة ، فقيل جنة للخائف من الإنس وجنة للخائف من الجنِّ . وقيل بل جَنَّتان للخائف من الطرفين : جنة لعقيدته وجنة لعمله . وقيل بل جنة لعمل الطاعات وثانية لترك المعاصى . وقيل جنَّة يثاب بها المؤمن على قدر ثوابه وجنة ثانية يتفضَّل بها الله عليه . وقيل جنة معجَّلة فى الدنيا بلذة المناجاة والتقوى والعمل الصالح وجنَّة مؤجَّلة هى الموعودة فى الآخرة ، وقيل جنة روحية وجنة جثمانية . وأولى من هذه الأقوال أن تكون هناك جنتان فعلا فى الدار الآخرة تنتظران المتقين المقرَّبين ، ومن ورائهما جنتان أخريان كما ستنص على ذلك آية

تالية بعد وصف هاتين الجنتين الأُوليين . وجاء مرارًا فى الذكر الحكيم أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات لا فى جنَّة واحدة ولا فى جنتين اثنتين بل فى جنات ، وقالوا إن ابن عباس ذكر أنها سَبْعٌ : جنة عَدْن أو جنات عَدْن المذكورة فى سور كثيرة ومثلها جنات النعيم أو جنة النعيم كما قال تعالى فى سورة يونس : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جناتِ النَّعِيمِ) وقال فى سورة المعارج : (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نعيم) . وجَنَّة الفردوس كما قال جَلَّ شأنه فى سورة « المؤمنون » : (الَّذِين يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُم فِيهَا خَالِدُونَ) وجَنَّة المأْوى كما جاءَ فى سورة النجم : (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى) . ثم جنة الخلد ، يقول تعالى ذكره فى سورة الفرقان : (جَنَّةُ الخُلْد الَّتِى وُعِد الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُم جَزَاءً ومَصِيرًا) . ودار السلام المذكورة فى آية الأَنعام : (لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْد رَبِّهِمْ) . وعِلِّيون المذكورة فى آية المطففين : (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَار لَفِى عِلِّيينَ) . ومن يرجع إلى آيات الذكر الحكيم ويَقْرن هذه الجنات بعضها إلى بعض يلاحظ أن الأَربعة الأولى وُصفت بأنها منازل ومساكن للأَبرار المؤْمنين كقوله عَزَّ شأْنه فى سورة التوبة : (وَعَدَ الله الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تحْتِهَا الْأَنهار خَالِدِين فِيها ومَساكِنَ طيِّبَةً فِى جنَّاتِ عَدْنٍ) .ونفس كلمة (عَدْن) معناها الإِقامة والنزول والسكن . وكذلك وصَفَ الله فى سورة الصافَّات ثواب عباد الله المخلصين بأَنهم (فِى جَنَّاتِ النَّعِيم) ، ثم قارن بينهم وبين عقاب الكافرين فقال : (أَذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) والنُّزُل ما يهيَّأ للنزيل من الطعام والراحة . وبذلك تُعَدُّ جنات النعيم منزلاً ثانياً من منازل الجنان ،

ومثلها جنَّة الفردوس كما قال تعالى فى سورة الكهف : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً) أى منزلاً ومقاماً كريماً ، ويقال أصل الفردوس البستان الذى يجمع أجمل ما فى البساتين . وكذلك وُصفت جَنَّة المأْوى فى آية سورة السجدة : (أَمَّا الَّذِين آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . أما الجنات الثلاث الأُخرى فلم توصف بأَنها مساكن ولا نُزُلٌ للمؤمنين ، وكأَنما هى نعوت وأَوصاف للجنات المذكورة . وأَولاها جَنَّة الْخُلْد ، وقد جاء الخلد فى وصف النار وعذابها كما فى آية فُصِّلت : (ذٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ) . وهو بذلك وَصْفٌ مشترك بين الجنة والنار أُريد به الدوام ، وليس عَلَماً على الجنة . وكذلك وَصْفُ الجنة بأَنها دار السلام ليس عَلَماً لها وإنما هو وصف لما يجده فيها المتقون من أَمن وطمأْنينة ، كما قال تعالى فى سورة إبراهيم : (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) تأْكيدًا لذلك . أما (عِلِّيُّون) فالآيات التى جاءت فيها لا تدل على أَنها من الجنات ، إذ يقول جَلَّ ذكره فى سورة المطففين عن أَعمال المتقين وتدوينها : (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ). وواضح أَن الله ، تعالى شأْنه ، فسَّر العِلِّيِّين بأَنها كتابٌ جامع لأَعمال الأَبرار ، والكلمة بذلك عَلَمٌ على هذا الكتاب ، كما يدلّ ظاهر الآيات . ومن قال إن علِّيِّين فى أَعلى الجنة يحتاج إلى تقدير مضاف محذوف مثل : « موضع » ونحوه . وهو تقدير لا داعى إليه ، لأَن الله ذكر بعد ذلك جزاءَ الأَبرار فقال : (إِنَّ الأَبْرارَ لَفِى نَعِيمٍ) وصور النعيم فى الآيات التالية . وبذلك يتضح أَن الجنات المذكورة فى القرآن أَربع طبقاً للجنات

الأربع المذكورة هنا فى السورة وهى عدْن والنَّعيم والفردوس والمأْوى، ويقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم وصف جَنَّات السورة الأربع فقال : « جنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما وجنتان من فِضَّةٍ آنيتُهما وما فيهما » . ويتضح من المقابلة بين الآية الأُولى : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) والآية الثانية (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) أن الجنتين الأُوليين أشرف وأرفع من الجنتين التاليتين ، وكأنهما للخائفين من المقرَّبين ذوى الدرجات العُلَى (وَمِن دُونِهِمَا جنتان) لمن يأْتى وراءهما من أصحاب اليمين . ولكن أىُّ الجنات الأربع السابقة يوضع فى الجنتين الأُوليين وأيها يوضع فى الجنتين الأُخريين ؟ الإجابة عن ذلك بسيطة فإن من يقرن الثواب الموصوف بعدهما إلى ثواب الجنات الأربع فى القرآن يعرف تَوًّا أن إحدى الجنتين الأُوليين جنة عَدْن فإن كل ما ذُكر هنا من ثوابٍ يدخل فى ثوابها المذكور فى آيات كثيرة مثل آية سورة صٓ : (وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ وَعِنْدَهُم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) . واللفظُ الذى وُصفت به الحور العينَ موجود بنصّه فى آيات الرحمن التالية للجنتين . وفى آيات أُخَر متصلة بجنات عَدْنٍ فُصِّل فيها ما جاء هنا من التنعُّم بالفُرُش على نحو ما يتضح عما قليل فى مقارنتنا الآيات بعضها ببعض ، وإذن فجنَّة عَدنٍ – إن صح ما لاحظناه – إحدى الجنتين المرادتين . والجنة الثانية جَنَّة النعيم لنفس الملاحظة ، وهى أن الثواب المقترن بها فى سورتى الصَّافَّات والواقعة يلتقى مع ثواب الجنتين المذكور هنا ، فقد جاءت فيه الفواكه والفُرُش الوثيرة ، ووصفت الحورُ بأنهن (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) . وبذلك تكون الجنتان جَنَّةَ النَّعِيمِ وجَنَّةَ عَدْنٍ ، وهما عطاءان كريمان خليقان بكل ثناءٍ وشكر من الخائفين

المقرَّبين الذين يخشون ربهم سواء أكانوا من الإنس أم من الجن . ومرَّ بنا أن الجن مكلفون ، واختلف الفقهاء هل يثابون كالإنس أولا يثابون ، وذهب الإمامان مالك وأبو حنيفة إلى أن ثوابهم إنما هو السلامة من العذاب كما جاء فى آية سورة الأحقاف المتصلة بالحديث عنهم : (يَغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ ويُجِرْكُمْ مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ) . واستدل أصحاب هذا الرأى بأنهم مخلوقون من نار ولا مدخل للنار فى الجنة . والذى عليه كثرة السلف أن حكم الجن حكم بنى آدم ثواباً وعقاباً ، لأنهم مكلفون ، بل إن كثيرين من السلف ذهبوا إلى أن مؤمنيهم كمؤمنى بنى آدم يدخلون الجنة ، مستدلين بأنه إذا كان كُفَّارهم وعُصاتهم من الشياطين يدخلون النار فحرىٌّ أن يدخل مؤمنوهم الجنة جزاءً عادلاً للعصيان والطاعة . والأولى أن نقول إن عصاتهم يعاقبون بالنار كما جاء ذلك صريحاً فى القرآن إذ يقول عن الشياطين فى سورة مريم : (لنُحْضِرَنَّهم حَولَ جَهَنَّم جِثِيًّا .. ثُمَّ لَنَحْنُ أَعلَمُ بِالَّذِين هُمْ أَولَى بِها صِلِيًّا) ويقول فى سورة الجن على لسانهم ووصفهم للقاسطين منهم أو الجائرين العاصين : (وأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً) . فعصاتهم وكفارهم من الشياطين وَقُودُ النار مثل كفار الإنس وعُصاتهم . أما ثواب المؤمنين منهم فليس فى القرآن ولا فى الحديث ما يصوِّر كيفيته ، فينبغى ألا نخوض فيه ، كما ينبغى ألا ننكره ، لأن الله تعالى أعدلُ من أن يعاقب عاصيهم ولا يثيب مطيعهم وراشدهم ، بل لعلنا لا نعدو وجه الصواب إذا قلنا إن الآية التى نحن بصددها وغيرها من آيات هذه السورة وما فيها من توجيه الخطاب للثقلين من الإنس والجن ، كل ذلك يدل على أن نعيم الآخرة مثل عذابها مشترك بين الجماعتين . وقد وضع الله

هاتين الجنتين وما سيأتى من تفاصيل نعيمهما أمام الجن والإنس ليردّ ضالّهم وعاصيهم إلى طريق الهدى ، وليدفع راشدهم وطائعهم إلى المضىّ فى طريق الفلاح وأن يزداد من أعمال البر والخير حتى يصبح من المقرَّبين الأبرار الخليقين بجنتى عَدْن والنعيم اللتين يحفل القرآن بوصف جمالهما وصَفْو الحياة فيهما ورَغَد العيش وهناءته مما لا يخطر على بال إنسان . ويُروَى أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلا : (وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّه جَنَّتان) ثم قال : « الجنَّتان بستانان فى عَرْض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام ، فى وسط كل بستان دار من نور ، وليس منها شىء إلا يهتزُّ نعمة وخضرة » .

(ذَوَاتَا أَفْنانٍ * فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

أَفْنان جمع فنن وهو الغصن ، فهى جنات ذات أغصان لا حد لها ولا حصر ، أغصان تَنْشُر على أهل الجنة الظلال ويجنون منها الثمار ، كما قال جَلَّ شأنه فى سورة الإنسان : (وَدانِيَةً عليهِم ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً) فظلالها قريبة منهم ، تُظِلُّهم لا من شمس ولا من حرارة ، فليس فى الجنة حر ولا شمس وإنما بها جو معتدل ، وكأنما ظلال الغصون فيها للمتاع وزيادة النعيم ، وقد سُخِّرت الغصون بجميع ثمارها لأهل الجنة كى يقطفوا منها كما يشاءون ، وعبَّر الله عن هذا النعيم الدائم من الطعام والظلال ، مما تعطيه الأغصان والأفنان فقال فى سورة الرعد : (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) ، وقال فى صفة أهل الجنة فى سورة النساء : (وَنُدْخِلُهُم ظِلاًّ ظَلِيلاً) وارفاً ممتعاً تجد النفس فيه راحتها ولذتها لذّةً لا توصَف . ويصف القرآن ، كما مرَّ بنا ، ظِلَّ أهل النار بأنه غير ظليل وأنه لا بارد كسائر الظلال ولا

واقٍ من سَموم النار ، بل هو ظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ أو دخان خانق . وقد سَمَّى هذا الدخان المميت ظِلاًّ هزؤًا وسخرية بالكفار الآثمين . أما ظِلُّ أهل الجنة فظلٌّ يحيي النفوس ويملؤها مسرَّةً ومتاعاً ، وهو كما جاء فى سورة الواقعة ظِلٌّ مَمدُودٌ لايتفاوت من مكان إلى مكان ولا ينقص من مكان بالقياس إلى مكان آخر . وقد توقف بعض السابقين إزاء قوله تعالى فى سورة الرعد : (الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُم وَحُسْنُ مَآبٍ) فقالوا إن (طُوبَى) شجرةٌ ، فليس المراد عيشاً طيباً لهم كما يدل عليه معنى الكلمة ، وإنما هى شجرة السِّدْرة المذكورة فى سورة النجم . وقد تكون الظلال فى الآيات تمثيلاً لكنف الله ورحمته كما لاحظ ذلك بعض المفسرين ، أو هى تجمع بين الظلال الحقيقية وظلال الرحمة والعطف والرأفة والنعمة . ومن الأحاديث النبوية الرائعة المتصلة بالظلال الدنيوية لا الأخروية قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما مثَلى ومثَلُ الدنيا إلا كراكب قال (أقام قليلاً فى وقت القيلولة وحَرّ الظهيرة) فى ظل شجرة فى يوم حارٍّ ثم راح وتركها » . وذهب بعض المفسرين إلى أنه لا يراد بالأَفْنان فى الآية الأغصان والظلال والثمار ، وإنما يراد فُنون النعيم الأُخرى وألوانه ، ومنه قول بعض الشعراء :

ومن كل أَفنان اللذاذة والصِّبا لهوتُ بهِ والعَيْشُ أخضرُ ناضرُ

وكأن الآية تشير إلى ألوان النعيم الكثيرة التى أعدها الله للمتقين فى هاتين الجنتين العظيمتين ، سواء ما اتصل منها بطبيعة الجنة الفاتنة وأنهارها وأشجارها وثمارها وظلالها وعيونها أو ما اتصل منها بمتاع أهل الجنة فى طعامهم وشرابهم وفى ثيابهم وحليِّهم وفى نسائهم وأزواجهم من الحور العين . ويضيف القرآن فى سورة الزمر إلى كل ما أحصَى من هذا النعيم الذى لا يطوف بعقل

بشر فى حياته الدنيا أن للمتقين ﴿مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحسِنِينَ﴾ فكل ما يفد على خيالهم ويتمنَّونه يجدونه تحت أبصارهم فى الجنات لا مَدَّ أبصارهم فقط. بل مَدَّ أيديهم ، بل إنه ليُسبغ عليهم من عنده ما لم يسألوه ولم تبلغه أمانيهم ، وإنها لألوان نعيم فوق ألوان ، ألوان لا يحيط بها وصف ولا يستقصيها نعت ، يُضْفيها الله على الأبرار الذين آمنوا به وحسُنَ إيمانهم ومضوا يعملون الصالحات يريدون بها وجهه وقلوبهم وَجِلَةٌ من لقائه راجين رحمته وخائفين خوفاً شديدًا من عذابه ، مع الأَمل فى الحظوة بثوابه وأن يعمَّهم بسعة فضلة وبِرِّه . وإن من أعدَّ كل هذه النعم والآلاء للثقلين لخليق بأن يتعلقا بعبادته ويتمسكا بهداه رجاء القبول أو التقبل ورجاء الرضا والإثابة بالنعيم الخالد .

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ :

فى كل جنة من الجنتين عينٌ جارية تجرى بماء يداعب الحَصْباء ، وعن ابن عباس أن حَصباءهما الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وترابهما الكافور وحَمْأتهما أو طينهما المسك الأذفر الفائح وحافتيهما الزعفران . وقيل إحدى العينين من ماء غير آسنٍ والأُخرى من خمر لذة للشاربين ، وقيل تجريان من جبل من مسك . وعن ابن عباس والحسن البصرى أن إحدى العينين السَّلْسبِيلُ والأُخرى التَّسْنِيمُ ، أما السلسبيل فجاءت فى سورة الإنسان ، إذ يقول جَلَّ وعز فى وصف شراب أهل الجنة : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . . . وَيُطَافُ عَلَيهِمْ بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّة

قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ويطُوفُ عَلَيهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيتَهُم حسِبْتَهُم لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا) والآياتُ توضح النعيم بعين فائحة الرائحة إذ يَنْهل منها الأَبرار كأسا من الخمر الصافية مزاجها الكافور الأَبيض الخالص برائحته العطرة ، عيْن تتفجر لهم ، كلما شاءوا ، من فرط النعمة وشمولها . ويُطاف عليهم زيادةً فى النعيم بآنيةٍ تحمل الأَطعمة من كِل لون وبأَكواب ودنان من فضة لها شفافية الزجاج وقواريره وصفاؤه ولها بياض الفضة وبهاؤها وجمالها ، فى مقادير وأَحجام وأَشكال مقدرة مقيسة بقدر الحاجة منها قياساً دقيقاً . وفى تلك الأَكواب البديعة يُسْقَون خمرًا مزاجها زنجبيل لذيذ الطعم . وإنها لَلْعَينُ الرائعة عين السَّلْسبيل التى ينحدر شرابها فى الحلق انحدارًا سائغاً سَلِساً ، وما يزال وُصَفاء مخلَّدون ، أَو قل وصفاءُ منعَّمُون ، لا يحول ولا يزول ما على وجوههم من نضرة البهاء ورَونقه ، يطوفون على أَهل الجنان رائحين غادين بتلك الأَكواب ، وإنك لتحسبهم لصفاء أَلوانهم وإشراق وجوههم لؤْلؤًا متناثرًا يشع البهجة والجمال . وتلك عين السلسبيل وما يغمر أَهل الجنة حولها من نعيم ، أَما عين التسنيم فقد وصفها الله فى سورة المطفِّفين إذ يقول أَيضاً فى وصف شراب الأَبرار وما أَعدَّه لهم فى الجنات : (يُسقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسكٌ وفِى ذٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُه مِن تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) . والرحيق من خَمر الجنة ، وفى الحديث : « أَيّما مؤْمنٍ سَقَى مؤْمناً شَرْبَةَ ماءٍ على ظَمَإٍ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأَيّما مؤْمنٍ أَطعم مؤْمناً على جوع أَطعمه الله من ثمار الجنة ، وأَيما مؤْمنٍ كسا مؤْمناً ثَوباً على عُرْيِ كساه الله من

خَضِر الجنَّة » . ووُصِفَ الرحيق بأنه مختوم ختامه مسك ، فدِنانه سدادها مسك لا طين كزقاق الخمر الدنيوية . وهو تمثيل لكمال نفاسة هذا الرحيق أو هذه الخمر الصافية الأَرِجَة . والله يدعو الناس إلى التنافس فى التعلق بهذا الرحيق الذى يَشْفِى القلوب والنفوس ، ويقول إن مزاجه من تَسنيم أى شرابٍ رفيع كما يدل على ذلك اشتقاق الكلمة ، إما لأنه ينحدر من أعلى مكان وإما لأنه أرفع شراب مكانة وقَدْرًا . وقال بعض المفسرين إنه عَلَمٌ لعينٍ تجرى من جنة عَدْن ، وكأن السَّلْسَبِيلَ عَينٌ تَجرى من جَنَّة النعيم . فهما عينان متقابلتان يرتوى أهل الجنَّات من أَقْدَاح شرابهما رِيًّا لا يعدِلُه رِىٌّ ، ريًّا يبعث فى نفوسهم لذة صافية لا يشوبها أىّ أَذًى من الأَذى المعروف للخمر الدنيوية وما تحدثه من غيبوبة وتَخْدير للعقل وصُداع للرأس ووَجع شديد ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الصافَّات واصفاً تلك الخمر الأُخروية واستعذاب أهل الجنة لها : (يُطَافُ عَلَيهِم بِكَأْسٍ مِن مَعِينٍ بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُم عَنْها يُنْزَفُونَ) فهى خمر تجرى من معين أو عين لا تزال تتفجر بها ، ليست كخمر الدنيا التى تُستَخْرَجُ بالعَصْر وضروب أخرى من العلاج وتوضع فى أَوعية ، بل هى خمر جارية كثيرة . وهى لذة خالصة ، ليس فيها ما يشوبها من غَوْل أو بعبارة أخرى من صداع مكدِّر وليس فيها ما ينزف العقل ويذهب به ليس فيها أى عيب من عيوب الخمر الدنيوية ، بل هى متاع خالص للشاربين. وهذا الوصف نجده فى سورة الواقعة إذ يقول الله جَلَّ شأنه : (يَطُوفُ عَلَيهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَعِينٍ لَا يُصدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ) وكأنما حَلَّت هنا كلمة (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) مكان كلمة (لَا فيها

غَوْلٌ) فى الآية السابقة . والغول ما يغتال العقل ويذهب به من الصُّداع ، وهو نفس معنى (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا) أى لا يصدر لهم صُداع عنها ولا يلحقهم أى وجع أو ألم فى الرأس . والله بذلك يكافئُ الأبرار ، الذين حَرَّموا على أنفسهم حسب تعاليمه الخمرَ الدنيوية وما تجرُّ إليه من فِسْقٍ . خَمرًا أُخروية أكثر منها لذة ومتاعاً . وشتان بين لذة لا تدوم يمازجها الأذى وتَخْدير العقل وصداع الرأس وتدفع إلى الخطيئات والموبقات ، ولذة باقية لا تَفْنَى ولا يشوبها أى إيذاء لا للنفس ولا للرأس ولا للعقل ، لذة خالصة سائغة للشاربين . وفى النهى عن تناول الخمر الدنيوية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا تناول العبد كأس الخمر ناشَده الإيمان بالله لا تُدخلها علىّ فإنى لا أستقرُّ أنا وهى فى وعاءٍ واحد ، فإن أَبَى وشربها نفر الإيمان نَفْرَةً لا يعود إليه أربعين صباحاً ، فإن ثاب تاب الله عليه ونقص من عقله شىء لا يعود إليه أبدًا » . والشارع إذ حَرَّمها فى الدنيا لما تجرّ إليه من الفسوق والعصيان أحلَّها فى الآخرة ، بل جعلها متاعاً صافياً مُزيلا منها كل أذى وكل ضرر ، بل لقد صوَّرها ممزوجة بأنواع من الطيب والزنجبيل . معروضةً فى أقداح وأكواب بديعة وبأيدى وُصَفاء يسرون الناظرين . كل ذلك ليصرف المؤمنين المخلصين عن الخمر المحرَّمة بما أعد لهم فى الآخرة من هذه الخمر المبهجة . وإن ما وصفه بها لآلاء ونعم سابغة جديرة بالشكر والثناء .

(فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

اختلف المفسرون فى المراد بالزوجين قيل هما صنفان : معهود وغريب لم يره أحد ولا سمع به . وقيل ضربان : رطب ويابس أو حلو وحامض ،

وعن ابن عباس ما فى الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، إلا أنه حلو ، وكأن كل ما فيها يستمد من حلاوة الطاعات ، وليس فيها شىء يستمد من مرارة السيئات كزقوم جهنم الفظيع ، الذى مرَّ وصفه .

وربما كانت الآية تشير إلى قانون من قوانين الخلق فى تلك الحياة وأنه يسرى فى الحياة الأخرى ، وهو قانون التزاوج الذى يعم فى الكون وجميع مخلوقاته . ومرَّ بنا قانون العدل والتوازن الذى رمز إليه الله بالميزان ، فكل ما فى الكون ينتظمه قانونان : قانون العدل وقانون التزاوج القائمان فى تركيبه ، وكما أن قانون العدل يشمل الوجود الدنيوى والأخروى فكذلك قانون التزاوج . وقد وقف القرآن إزاءه مرارًا وتكرارًا ، موضحاً أنه سر الحياة الزوجية وما تفضى إليه من الأبناء والمحافظة على الحياة الإنسانية ، إذ يقول الله تعالى فى سورة الروم : (وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِن أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) فقد جعل للإنسان زوجته من نفسه ، بل لقد خلقهما (مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) حتى يكتمل بينهما التلاؤم ، وحتى يحس الإنسان أن زوجته ليست جزءًا من جسمه المادى بل هى جزء لا يتجزأ من جوهره الروحى ، وهو لذلك يسكن إليها ويجد راحته وهناءته ومتاعه من المودة والرحمة واللطف والرقة . وبالمثل خلق الأنعام من الضأن والمعز والإبل والبقر كما جاء فى سورة الزمر : (خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) وقد فَصَّلها فى سورة الأنعام (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) وكذلك نظراؤه . وعلى نحو خَلْقه للأنعام والإنسان على أساس قانون التزاوج خَلْقُه لجميع الحيوانات والكائنات والثمرات والنباتات كما قال فى سورة الشعراء : (أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ

زَوْجٍ كَرِيمٍ) وقال فى سورة الرعد : (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) فاكهة وغير فاكهة بل لقد عَمَّم الله هذا التزاوج فى كل شىء فى الكون وكل جنس من أجناس موجوداته ، فقال : فى سورة الذاريات : (ومِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) . وذهب جمهور المفسرين إلى أن الزوج كل ما يقترن بغيره مماثلاً له أو مضاداً ، مما جعلهم يقولون إن المراد بالزوجين فى الآية نوعان مختلفان كالذكر والأنثى والسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والنور والظلام والسهل والجبل والبر والبحر والصيف والشتاء والجن والإنس والخير والشر والإيمان والكفر والدنيا والآخرة والحق والباطل والسعادة والشقاء والحياة والموت والعز والذل والقوة والضعف والعلم والجهل والفرح والحزن والحرارة والبرودة والحلو والمر . وهو بُعْدٌ فى التفسير . وقيل إن المراد بالتزاوج فى الآية أن كل شىء فى الوجود لا ينفك من تركيب أو قل من تزاوج بين صورة ومادة ، وهو أيضاً إغراق فى البعد والتماس لتفسير التزاوج بما يقوله المتفلسفة عن المادة والصورة أو عن الجوهر والعرض . وليس هناك ما يضطرنا إلى مثل هذا التأويل أو مثل فهم المفسرين السابق ، فالله يكرر أن كل ما فى العالم خُلِقَ أزواجاً مقترنة ، قانون قائم من قوانينه فى خلق العالم وصُنْعه كما قال فى سورة يس مصوِّرًا عِظَم قدرته : (سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِن أَنْفُسِهِم وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ) والآية صريحةٌ فى أن كلَّ ما فى الكون خُلق أزواجاً : ما نعلمه أو نعرفه من الناس ومن النباتات والحيوانات ومالا نعلمه ولا نعرفه بطريق من طرق معرفتنا وعلمنا مما لم يجعل الله لنا طريقاً إلى العلم به ومعرفته سواء أكان فى أرضنا وما يتصل بها من الجمادات والموجودات أو كان فى كواكب أخرى مما

لا يحيط به علم البشر . والنص فى الآية على أن الفاكهة فى الآخرة ستكون زوجين قد يشير كما أسلفنا إلى أن قانون التزاوج الدنيوى فى الخلق سيظل سارياً فى الآخرة . وقد يكون فى هذا القانون ما يشير إلى أن الله وحده المتصف بالوحدانية والفردانية فلا شريك له ولا مماثل ، إنَّه الوِتْر الفرد ، ولا يوجد فى الوجود فرد سواه . فهو المتفرد بالأحدية ، ولا شىء يماثله فى أحديته بوجه من الوجوه ، إذ كل شىء ، سواه زوجٌ وكُفْءٌ لشىء آخر ، كل شىء خلق زوجاً ومماثلاً لنظير وقرين . وكأنما سيظل هذا القانون سارياً فى الآخرة على الفاكهة وغير الفاكهة ، حتى يظل للثقلين أُنْسُهما بالوجود المألوف ، وهى آلاء ونعم مزدوجة حرية بكل شكر وكل امتنان .

(مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِن إِسْتَبْرَقٍ وجَنَا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

تصوِّر الآية فرش أهل الجنتين وما تغرق فيه من النعيم وأسبابه . والفرش تشمل الأسرَّة والمنصات والمجالس كما تشمل الوسائد والبسطَ. وكل ما يجلس عليه الشخص أو يضطجع وينام من الطنافس ، وهى طنافسُ بطائنها من إستبرق وهو ما غَلُظَ من الدِّيباج أو الحرير ، أما ظواهرها فقيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال إنها « نور يتلألأ » وقيل إنها من سندس وهو الحرير الرقيق . وصَوَّرَتْ سورة الواقعة أَسِرَّتهم فقالت إنهم : (فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ . . عَلَى سُرُرٍ مَوضونةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيها مُتَقَابِلِينَ) والموضونة المنسوجة بالذهب المشبَّكة بالدرّ والياقوت والزبرجد ، وهم يتكئون عليها ويجلسون جلوس الراحة والمتعة متقابلين متوادِّين كل منهم يقبل على صاحبه فى حنوٍّ وود ومحبة ، لا فى تناكر وتباغض وتنافر كأهل النار . وتأخذ

الفُرُش فى سورة الغاشية هذه الصورة : (فيهَا سُرُرٌ مَرفُوعَةٌ . . وَنَمَارِقُ مَصفُوفَةٌ وزَرابِىُّ مَبْثُوثَةٌ) . وارتفاع الأَسِرَّة إما حقيقىٌّ ، فهى عالية فى الهواء على قوائم طِوالٍ ، وإما مجازىٌّ بمعنى أنها رفيعة القدر لحسنها ولما كُلِّلت به من الزبرجد والجواهر . والنارق الوسائد المسماة فى عاميتنا باسم « المساند والمخدات » وهى مصفوفة فوق المجالس والأَسرَّة للاتِّكاء عليها والاستناد طلباً للراحة . والزرابىُّ الأَبسطة ، وهى (مبثوثة) أَو منثورة على الأَرض وفوق المجالس للزينة وإمتاع النفس والنظر . ولم تعرض السورةُ لثياب جَنَّتَىْ عَدْنٍ والنَّعِيمِ وعرضتْ لها سور القرآن فى آيات مختلفة ، من ذلك سورة فاطر إذ قالت : (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) وسورة الكهف إذ قالت : (وَيَلْبَسُون ثِيَاباً خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) فثيابهم من حرير ومن إستبرق منسوج بالذهب ، وهى خضراء كخضرة الزروع ، خضرة تأْخذ بالأَلباب . ولم تعرض السورةُ لحلىِّ أَهل الجنتين المذكورتين وعرضتْ لها سور عدة ، من ذلك قوله تعالى فى سورة فاطر : (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا) فهم يتزينون بأَساور الذهب وباللؤلؤ وغيرهما من أَنواع الحلىّ والزينة مما يملأُ نفوسهم بالبهجة ، وفى سورة الإِنسان : (وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ) ولا تعارض بين الآيتين ، فهم إما يجمعون بين أَساور من ذهب ولؤلؤ وفضة ، وإما يعاقبون بينها ، أَو يختارون منها ما يشاءُون ، وقد يكون عند شخص بياض الفضة فوق صفرة الذهب وبياض اللؤلؤ وبريقه ولمعانه . وتصوِّر بقية الآية (جَنَا الجَنَّتَيْنِ) وهو ما يُجْنَى من ثمارها الطيبة بأنه (دانٍ) فهو فى متناول أَيديهم ، قريب منهم بحيث يقطفون منه كلما شاءوا قائمين أَو جالسين أَو مضطجعين لا يرد أَيديهم بُعْدٌ ولا أَشواك . وقيل إن الأَشجار تدنو للأَبرار كى يأْخذوا من ثمارها ما يريدون ، وقيل إن كل ما

يطلبونه يجدونه فوقها فيتناولونه . ولم تذكر السورة من طعام أهل الجنة سوى الثمار والفواكه ، وفى سورة الطور فى وصف نعيم أهل الجنة : (وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) فمن بين النعم التى يمدُّ الله بها أهل الجنة لَحْمٌ من كل ما يشتهون من طير وغير طير . وفى سورة الزخرف : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) والصحاف آنية الطعام ، والأكواب آنية الشراب ، ويُرْوَى أن الرسول عليه السلام : « قال إن أهل الجنة يأكلون فيها ولا يشربون ولا يبولون ولا يتغوَّطون قالوا فما بال الطعام ؟ قال : رَشْح كرشح المسك يُلْهَمُون التسبيح والتحميد » . وفى بعض كتب التفسير أن سباكن الجنة يُغْدَى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب ليس منها صحفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى مثله ، وشهوته إلى الطعام فى آخرها كشهوته فى أولها لو نزل به جميع أهل الأرض لوسَّع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أدّى شيئاً . وفيها أيضاً أنه يُغْدَى عليه ويُرَاحُ بثلثمائة صحفة من ذهب فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى وإنه ليلذّ أوله كما يلذ آخره ، ومن الأشربة ثلثمائة إناء فى كل إناءٍ لون ليس فى الآخر ، وإنه ليلذُّ أوله كما يلذُّ آخره ، وإنه ليقول : ربِّ لو أذنتَ لى لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم لم ينقص مما عندى شىء . والمبالغة واضحة فى التصويرين ، ويحسن أن نتوقف عند ما ذكره الله جل شأنه من وصف نعيم الجنة ، وألا نتسع إلا بمقدار ما يصور ذلك الحديث النبوى الصحيح . ولا ريب فى أنه أعلى وأرفع من كل نعيم نتصوره فى الدنيا ، ولكن ينبغى أن لانفسح لأنفسنا فى تخيله وتصور فنونه وألوانه . على كل حال هو نعيم فوق كل ما نتصور وكل ما نتخيل ، وإنه

لجدير أن يدفع الكفار الآثمين إلى تدبر موقفهم وتلافى تقصيرهم واللجوء إلى رحاب ربهم ودينه الحنيف ، كما يدفع الأبرار إلى أن يزدادوا طاعة وتقوى ونسكاً وعبادة . وكل ذلك نِعمٌ وآلاءٌ متعاقبة متوالية تستحق كلّ شكران وكل امتنان وكل عرفان . .

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْف لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَاجَانٌّ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

فيهن أى فى الجنتين السالفتين وما أُعِدَّ لصاحبهما فيهما من النعيم ، وقيل فيهن أى فى الفُرُش التىْ بطائنها من إستبرق . و (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) حابساتٌ عيونَهن على أزواجهن فلا ينْظُرن إلى غيرهم ، فهن يَغْضُضْن من أبصارهنَّ راماتٍ إلى الأرض لا يَرْفَعْنَها إلا إلى أزواجهن عفافاً وطهرًا ،كما قال تعالى فى سورة النساء عن الجنة ونعيم أهلها : (لهَمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ) من كل أذى جسمىٍّ ونفسىٍّ أو من كل إثم وذنب أو من كل أدْران الدنيا وأخلاقها السيئة ، فَهُنَّ طاهراتٌ عفيفات يُقْبلن على أزواجهن وكلهن مودة وحنوٌّ وحب . وفى بعض كتب التفسير أن الواحدة منهن تقول لزوجها : والله ما أرى فى الجنة شيئاً أحسن منك ولا فى الجنة شيئاً أحب إلىّ منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك ، وقيل إنها تقول له : أنت حبى وأنا حبّك ، وأنا الخالدة التى لا أموت ، وأنا الناعمة التى لا أبؤس ، وأنا الراضية التى لا أسخط ، وأنا المقيمة التى لا أظْعَنُ . وفى سورة صٓ : (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) والأتراب المتساويات فى السن إما مع أنفسهن أو مع أزواجهن ، وقيل أتراب ليس بينهن تحاسد ولا تباغض وإنما بينهن الحب والمودة ،

والتفسير الأول أقرب . ويصفهن القرآن بأنهن حور ، والحوراء شديدة بياض العين وسوادها ، وفى سورة الصافات : (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ) والعِينُ جمع عَيْناء وهى الحوْراء أو النَّجْلاء واسعة العين حسناء النظر . والبيض اللؤلؤ ، والمكنون المستور فى الصدف المصون الذى لم تمسه الأيدى ولم تره الأعين ولم يُدَنِّسْه أىُّ تراب أو غبار ، وكل ذلك تصوير لجمال هؤلاء العفيفات وأن نعم الأزواج بهن مضاعفة . طهارة أثواب ونقاء نفوس وجمال صور وحب صادق . وقيل إن وصفهن بأنهن (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) إنما يعنى جمالهن وأنهن يَقْصرن أعين أزواجهن عليهن فلا ينظرون إلى غيرهن ، إذ يشغلنهم عن كل من حولهن ويستأثرْن بهم ولا يدعْنَ لهم سبيلاً إلى الالتفات إلى سواهن ، فعيونهم دائماً معلقة بهن ، ضاربة من حولهن نطاقاً من صفو الحب وهناءته . ومعنى الكلمة الأول أقرب وأوضح . و (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) لم يفضضهن ولم يمسسهنَّ أى لم يمسّ الإنسيَّات أحد من الإنس ولا الجنيَّات أحدٌ من الجن فى تلك النشأة الثانية أو فى الدار الآخرة . ويدل ظاهر الآية على أن الجن يدخلون الجنة ويكون لهم فيها جنيات من جنسهن قرينات لهم كقرينات الإنس . وقيل إن الله يخلق فى الجنة حورًا للإنس يشاكلنهم يقال لهن إنسيات وحورًا للجن يشاكلنهم يقال لهن جنيات . وقيل يجوز أن تكون الحور كلهن جنساً واحدًا أو نوعاً واحدًا ، وهو نوع أو جنس مختلف فى نشأته وطبيعته عن نساء الدنيا ، ويُعْطَى منهن الجن . وقيل بل (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) هم نساء الدنيا أُنشئن نشأة ثانية كما أُنشئ الرجال . وواضح أن الآية تحمل إلى الثقلين نعماً وآلاءً جديدة تصور الدرجة الرفيعة التى أعدها الله للأبرار المقربين مما ينبغى أن

يتلقوه بشكر اللسان والجنان وأن يخلصوا وجوههم وقلوبهم لرب الآلاء والأفضال.

(كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

تصوير لقاصرات الطَّرْف بأنهن كالياقوت احمراراً والمرجان ، وهو اللؤلو ، صفاءً والتماعاً . وفى بعض كتب التفسير سيول من المبالغات كأن يقال لو اطلعتْ امرأة منهن فى الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما رائحة عطرة ، ولو أن شعرة من شعر رأسها وقعت فى الأرض لأشبه ضوءُ الشمس بالقياس إلى نورها سواداً فى نور ، وقالوا لو أن لؤلؤة من اللؤلؤ المركوم عليها سقطت إلى الدنيا لأضاءت ما بين المشرق والمغرب . وتكاثر مثل هذا التصوير حتى قيل إنهن يكثرن من الخلاخل والأساور وعقود الجواهر كثرة مفرطة ، بل قيل إنهن يُزَيِّنَّ نعالهنَّ باللآلئ ، وكل واحدة منهن تلبس سبعين حُلَّة ، لكل حُلَّة لونُها البهيج ، وتتطيَّب بسبعين لوناً من الطِّيب ليس منها لونٌ يماثل لوناً ، ولكل منهن سبعون سريراً من ياقوتٍ أحمر قد نُسجتْ بالذهب والدُّرَرِ ، وعلى كل سرير سبعون فراشاً بطائنها من إستبْرَقٍ ومعها سبعون أَرِيكةً ، ولكل واحدة سبعون وصيفةً ، بيد كل وصيفة صحفتان من ذهب فى كل منهما لون من طعام ، تجد لآخر لقمة منه لَذَّةً لا تجده لأولاها ، ولزوجها سريرٌ من ياقوت أحمر عليه سواران من ذهب وقد وُشِّحَ باللآلئ والدرر . وإنما سقنا ذلك كله لندل على مدى المبالغات التى اقترنت بتصوير حور الجنان . وينبغى أن نقف فى تصوُّرهن عند القرآن الكريم والحديث الصحيح ، وألا نطلق للخيال العنان ، لأن كل تلك مشاهد غيبية ، تدخل فى ملكوت النشأة الثانية الإلٰهية مما تقصر العقول عن إدراكه وتعجز الأفهام عن كشف أسراره ، فيحسن ألا نتجاوز ما تنصُّ عليه آى

الذكر الحكيم وما صحَّ من الأحاديث التى لا يرقى إليها شك . وقد صورهن الله هنا عفيفاتٍ طاهراتٍ محبَّاتٍ لأزواجهن مخلصات على حظ عظيم من الحسن والجمال حتى ليشبهن الياقوت فى لطفه وصفائه والمرجان أو اللؤلؤ فى بياضه وبهائه ، وإنها لنعم مضاعفة تستوجب من الثقلين الشكر والثناء .

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

لكلمة الإحسان معنيان : معنى الإتقان فى العمل ومعنى الإنعام على الغير ، وقد استُخْدمت فى الآية بالمعنيين جميعاً ، فكلمة الإحسان الأُولى يُراد بها إحسانُ الإنسان فى عمله وامتثاله لطاعات ربه ، وكلمة الإحسان الثانية يراد بها إحسان الله على المتقين المؤمنين بنعيم الجنات والرضوان . وقيل بل الإحسان الأول التوحيد وكلمة الشهادة لما رُوِىَ من أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا الآية ثم قال : « يقول الله هل جزاء من أنعمتُ عليه بمعرفتى وتوحيدى إلا أن أُسكنه جَنَّتِى وَحظيرة قُدْسى » . وذهب كثير من المفسرين ، منهم البيضاوى ، إلى أن الإحسان الأول الإحسان فى العمل عامة ، وكأن الرسول عليه السلام نَصَّ من هذا الإحسان على أعظم أصنافه وهو الإيمان بوحدانية الله اعتقادًا وعملا ، وفى الحديث عن أبى ذَرٍّ أنه قال : « يا رسول الله دُلَّنى على عمل يُدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار » فقال عليه السلام : « إذا عملتَ سَيِّئَةً فاعمل بجانبها حسنة فإنها بعشر أمثالها » ، فقال : « يا رسول الله لا إله إلا الله من الحسنات؟ » فقال عليه السلام : « هى أحسنُ الحسنات » إذ هى الأصلُ الأول فى الإيمان ونوره وهداه . ومن إحسان المؤمن امتثاله لجميع تعاليم الدين الحنيف والنهوض بعباداته على الوجه الأكمل ، كما جاء

فى الحديث النبوى : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . والإحسان بهذا المعنى يتطلب أن يستشعر المؤمن دائماً أنه بحضرة ربه يراقبه فى كل صغيرة وكبيرة فى السِّرِّ وفى العلن لا تخفى عليه منه خافية . وهو دائماً يصفِّى له نفسه بالتوحيد والإخلاص الصادق والخشية والإنابة والعبادة حق العبادة . ويتردد فى القرآن وصف المؤمنين الذين عملوا الصالحات بأنهم محسنون كما فى آية الزُّمَر : (أُولٰئِكَ هُم الْمُتَّقُونَ لَهُم مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ ربِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) وآية المرسلات : (كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُم تَعْمَلُونَ إنَّا كَذٰلِكَ نَجزِى الْمُحْسِنِين) . ومن الإحسان المتعلق بالإنسان الإنفاق على الفقراء وذوى الحاجة ، وقد نَوَّه القرآن به وبأجره وثوابه عند الله تنويهاً عظيماً ، إذ سماه (قَرْضاً حسَناً) وتعهَّد عهدًا عظيماً ـ ومَن أوفى بعهده من الله ـ أن يضاعف ثوابه مرارًا كثيرة ، يقول فى سورة البقرة : (مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثيرةً) . بل لقد تعهد لمن ينفق ماله فى جهاد أعداء دينه وحربهم أن يضاعف لهم ما ينفقونه سبعمائة ضعف ، ومَثَّلَ المنفق فى هذا الجهاد بزارعٍ زَرَعَ فى الأرض حَبَّةً فإذا هى تُنْبِت سبع سنابل عجيبة فى كل سنبله مائة حبَّةٍ كما جاء فى سورة البقرة : (مَثَلُ الَّذِين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِل فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) وهو إنعام من الله مضاعف يلقى به إنعام المؤمن بل إحسانٌ فوق كل إحسان . وقد سَمَّى الله كل ما يقدمه المؤمن فى دنياه من عمل صالح حسنةً أى نعمة وثواباً يُثَابُ عليه فى أخراه كما قال فى سورة النَّمْلِ : (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيرٌ مِنْهَا وَهُم من فَزَعٍ يَومَئِذ آمِنُونَ) ، بل لقد وعد بأن تضاعَف الحسنة عشرة أضعاف

كما قال فى سورة الأنعام : (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) ويقول فى سورة يونس : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسنَى وَزِيَادَةٌ) ، فلهم ثوابهم وهو ثواب مضاعف إذ يجدون كل ما يشاءون مما تشتهيه أنفسهم ويلذ أعينهم ، ولدى الله فوق ذلك (زيادة) من النعم لا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها . وهذا معناه أن كلَّ ما يتصوره المؤمن من أنواع الإحسان الإلٰهى والإنعام الربانى الذى وعده الله به فى الذكر الحكيم وراءه فى الآخرة أنواع لاتُحْصَى من نعيم الجنان والرضوان . والآية توضح تفضل الله على أصحاب الجنتين السابقتين : جنتى عَدْن والنعيم بأنه إحسان يستحقونه على ما قدمت أيديهم من إحسان ، وكأنه جزاءٌ عادل لأعمالهم ، وهو فوق العدل ، لأنه زائد عليه إنعاماً عظيماً خليقاً بكل شكر وثناءٍ على رب العالمين .

(وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

مدهامَّتان من الدُّهْمة ، وهى سواد الليل ، ويعبَّر بها عن الخضرة التامة للزروع والرياض كأنها من شدة خضرتها سوداء اللون . وكلمة (وَمِن دُونِهِمَا) أى ومن دون الجنتين السالفتين تفيد أن هاتين الجنتين وهما جنة الفردوس وجنة المأوى أقلُّ منهما فى الدرجة والفضل . ومن يقرن صفاتهما فى الآيات بعدهما بعضها إلى بعض يلاحظ ذلك فى وضوح ، إذ قال الله عز وجل فى هاتين (مُدهَامَّتَانِ) وفى الأُوليين (ذَوَاتَا أَفْنَانٍ) فوصفهما بشدة خضرتهما ووصف الأوليين بكثرة الأغصان ، وقد يكون فى ذلك إشارة إلى كثرة الثمار والفواكه فيهما . ووصَف هاتين بأنهما ذواتا عينين نَضَّاختين

ووصف الأوليين بأن فيهما عينين تجريان . والنَّضْخُ دون الجرى لأنه فَوَارن الماء فحَسْبُ . وقال : (فِيهِما فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) ولم يقل : (مِن كُلِّ فاكِهَةٍ) كما قال فى الأُوليين . وقال إن فُرشهما العبقرىُّ وهو الوَشْىُ ، فى حين قال إن فُرُشَ الأُوليين الإستَبْرَقُ وهو الديباج . ووصَف الحور هنا بأنهن (خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) ووصفهما فى الأوليين بقوله : (كَأَنَّهُن الْيَاقُوتُ وَالْمرْجَانُ) وهو تَشبيهٌ يعطيهما درجة عالية من الحسن والجمال . وكل هذه الفروق بين الجنتين الأُوليين والجنتين الأُخريين لاحظها القدماء ، مما جعلهم يظنون أن الجنتين الأُوليين جنة عَدْن وجنة النعيم وأن الجنتين الأُخريين جنة الفردوس وجنة المأوى . وقالوا إن الأُوليين من ذهبٍ للمقربين والأُخريين من فِضَّةٍ لأصحاب اليمين . وذكروا أن الله بنى جَنَّة الفردوس لَبِنَةً من ذهب خالص ولبِنَةً من مسْكٍ مصفًّى وغَرسَ فيها من طيِّب الفاكهة وطيِّب الريحان وفَجَّر فيها أنهارها الأربعة : فنهر من ماء ونهر من لبن ونهر من خمر ونهر من عسل . وقيل : بل بُنيت لَبِنَة من ذَهب ولبنة من فضة وجُعل خلالها المسك الفائح وغُرس فيها من جَيِّد الفاكهة وجَيِّد الريحان . وعن ابن عباس أن جنة المَأْوَى بُنِيَتْ من ذهب ، وكأنه لا فارق بين هاتين الجنتين والجنتين السابقتين فى البناء ومادته ، إنما الفارق فى الصفات التالية لهما ، مما جعل كثرة المفسرين يقولون إن الأُوليين للمقربين والأخريين لأصحاب اليمين ، أخذًا من تقسيم الله جَلَّ شأنه للناس يوم القيامة فى سورة الواقعة ، إذ جعلهم أصنافاً ثلاثة : أصحاب المَشْأَمة وهم الكفار العاصون ، وأصحاب المَيْمَنة وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وهم أصحاب المنزلة السنية ، أو الذين صحائفهم بأيمانهم ، أو الذين يكونون يوم المعاد على يمين

العرش فيأخذون طريقهم إلى الجنة . ثم المقرَّبون السابقون إلى النُّسك وأعمال البر والخير . وصوَّر الله فى السورة ثواب الفريقين مصرِّحاً بأن المقربين يدخلون فى جنات النعيم وأنهم يكونون فيها على أسرة ، وُصفت بأنها منسوجة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت ويطوف عليهم وصفاء بكئوس الخمر المصفى وبصحاف الفاكهة والطعام وترافقهم حور كأمثال اللؤلؤ المكنون. ويمكن أن يقال إن نعيم أصحاب الميمنة المرادين بهاتين الجنتين الأُخريين وُصف فى سورة الواقعة ، كما وُصف نعيم المقربين فيها ، وصفاً يضيف بعض التفاصيل إلى ما ذُكر هنا من نعيم ، إذ يقول جَلَّ شأنه : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ما أَصحَابُ الْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ وطَلْحٍ مَنْضُودٍ وظِلٍّ مَمدُودٍ وَمَاءٍ مَسكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرةٍ لَا مَقطُوعةٍ وَلَا مَمْنوعَةٍ) والسِّدر شجر النبق ، ومَخْضود خضد الله شوكه ونزعه منه . وفسح بعض المفسرين لمبالغات مفرطة ، فقالوا إنه جُعل مكان كل شوكة فيه ثمرة ، وكل ثمرة تنفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ليس فيها لون يشبه اللون الآخر . وقالوا ثمره كبير فى حجم القِلال وورقه مثل آذان الفِيلة . وكل ذلك مما استأثر الله بحقيقة أمره . والطَّلْحُ شجر المَوزِ ، وقيل ثمره أحلى من العسل ، والمَنْضود المرصوص والمتراكب ، وللطلح أوراق كبار وظل بارد ، فى حين أن السِّدر له أزهار كثيرة طيبة الرائحة ، وكأنه يتَّخذ للطعام والنزهة والزينة . (وَظِلٍّ مَمدُودٍ) دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس لأنه لا شمس هناك بل ظل مستمر . وفى الحديث النبوى : « إن فى الجنة شجرةً يسير الراكب فى ظلها سبعين – أو مائة سنة – هى شجرة الخلد » وهو حديث مقطوع بصحته عند أئمة الحديث لتعدد طرقه وقوة

أسانيده وثقة رجاله . وعن ابن عباس قال : « الظل الممدود شجرة فى الجنة على ساقٍ ظلها قدر ما يسير الراكب فى كل نواحيها مائة عام ، فيخرج إليها أهل الجنة : أهل الغرف وغيرهم ، فيتحدثون فى ظلها بأصلها ويشتهون لهو الحياة ، فيرسل الله ريحاً من الجنة ، فتحرك تلك الشجرة بكل لهو فى الدنيا » . وفى بعض الآثار أن أهل الجنة مُرْدٌ حَسنُوا الوجوه فى سن الثلاثين لا يهرمون ، وأن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتَطْهُر أجوافهم كما قال تعالى فى سورة الإنسان : (وسَقَاهُمْ ربُّهُمْ شَرَاباً طَهُورًا) ثم يغتسلون من الأُخرى فتطيب أجسادهم وبشرتهم أو أبشارهم . ويقول خزنة الجنة كما جاء فى سورة الزمر : (سَلَامٌ عَلَيْكُم طِبْتُمْ فَادخُلُوهَا خَالِدِينَ) فيدخلونها وعلى وجوههم نضرة النعيم ، ويظلون بها هانئين لا تتغير أبشارهم ولا تتشعث أشعارهم . وقيل إنهم يذهبون إلى شجرة فى الجنة فيُكْسَوْنَ منها فلا تَبلى ثيابهم ولا يَفْنَى شبابهم . (وَمَاءٍ مَسكُوبٍ) يُسكب لهم ويصبّ كلما أرادوا وأينما شاءوا بلا تعبٍ ولا نَصبٍ ، فهو مَدُّ أيديهم يسيل على الأرض فى غير انقطاع ، فيأخذون منه حاجتهم ويتمتعون به وبمنظره حين يداعب حَصباءَ الجنَّة من الدر والياقوت . (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ ولَا مَمْنُوعَةٍ) فهى لا تنقطع كفواكه الدنيا فى بعض الأوقات ، ولا تمتنع عن متناوليها من الأبرار بوجه من الوجوه كبُعد على الغُصن أو شوك من دونها ونحو ذلك ، بل هى دانية تُقْطَفُ فى سهولة ويسر . وفى الذكر الحكيم آيات كثيرة تصوِّر نعيم الجنات دون تقييدها بجنة معينة ، مما قد يدل على أنه نعيم مشترك بين أهل الجنان جميعاً بين المقربين وأصحاب اليمين ، على نحو ما جاء فى سورة

الزُّخْرُف : (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسلِمِين ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيهِم بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعيُنُ وَأَنْتُم فِيهَا خَالِدُون وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُون لَكُم فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ) . وواضح أن المؤمنين أصحاب هذا النعيم العظيم لم يخصَّصوا بأنهم من السابقين المقرَّبين ، إنما هم مسلمون فحسب ، وبالمثل لم تخصَّص الجنة ، فهى ليست جَنَّةَ عَدنٍ ولا جَنَّةَ النعيم ولا جَنَّةَ الفردوس ولا جَنَّةَ المأوى ، بل هى الجنة عامة بحيث تشمل كل تلك الجنات ،فجميعها يطوف فيها الوصفاء والولدان بصِحاف الطعام وأكواب الشراب وآنية الفواكه من كل ما تشتهيه الأنفس ومن كل ما يَلَذُّ الأعين . ويقول جَلَّ ذكره فى سورة الطور : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِن عَمَلِهِم مِن شَىءٍ كُلُّ امرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ وَأَمْدَدنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ وَيَطُوفُ عَلَيهِم غِلْمانٌ لَهُم كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) . وعن ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته فى الجنة وإن كانوا دونه فى العمل لتقرَّ بهم عينه ، ثم تلا الآية . وفى رواية أخرى عنه : إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناءَ إلى الآباءِ ، وإن كان الأبناءُ أرفع درجة رفع الله الآباءَ إلى الأبناءِ ، فالآباء داخلون فى مدلول الذرية كقوله تعالى عن قوم نوح : (وآيَةٌ لَهُم أَنَّا حمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) ، وعنه أيضاً يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ سأَل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول : يا رب إنى عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به» . وكل ذلك رحمةٌ ولطفٌ من الذات

العلية حتى يكون نعيم أهل الجنة كاملا بسعادتهم فى أنفسهم وفى أهليهم ، وطبيعى أن يَلْحق بهم أطفالهم الذين ماتوا فى المهد وقبل سِنِّ التكليف . (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِن عَمَلِهِمْ مِن شَىْءٍ) ما نقصناهم من ثواب أعمالهم شيئاً بهذا الصنيع ، فإنه تفضُّلٌ وإنعام ، وقانون عدالة عام (كُلُّ امرئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) فلا يُظْلَمُ أحدٌ شيئاً ، بل يُضاف إلى ثوابه ويُزاد إعزازًا وتكريماً وإنعاماً من وَلِيِّ النعم . (وأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) رَفَدْناهم بفاكهة ولحم مما يتخيرون من كل الأنواع . وروى بعض المفسرين أن المؤمن إذا نزع ثمرة من ثمار الجنة خلفتها فى مكانها أخرى وتكثر المبالغات وترفدها سيول من الإسرائيليات فمن قائل إن طير الجنة تأكل من ثمرات الجنة وتشرب من أنهارها ، فإذا اشتهى المؤمن منها شيئاً جاءه حتى يقع بين يديه فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص منه شيء . وهى مبالغة واضحة فى التصور ومثلها ما قيل من أن فى الجنة طيرًا فيه سبعون ألف ريشة ، فيقع على صَحْفة الرجل من أهل الجنة ، فينتفض ، فيخرج من كل ريشة لونٌ أشد بياضاً من اللبن وألين من الزبد وأعذب من الشهد ليس منها لون يشبه صاحبه ، ثم يطير . وكل ذلك مما استأثر الله بمعرفة حقيقته . (يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ) يتداول فيها المؤمن وزوجته وذريته كأس الخمر الصافية الهنيئة ولا يجرى بينهم لغو ولا إثم فى الحديث كما يجرى فى مجالس الخمر الدنيوية ، بل مسرة وفرحة دائمة . وقال جَلَّ وعزَّ فى آية سورة الطور السَّالفة . (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) وقال فى سورة الإنسان : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ) يطوفون عليهم بِصِحاف الطعام وأكواب الشراب الذهبية والفضية .

وقال بعض المفسرين مطلقين لخيالهم العنان : يطوف على أدناهم فى الجنة منزلةً سبعون ألف غلام بسبعين ألف صَحْفة من ذهب يُغْدَى عليه بها ، فى كُلِّ واحدة منها لون ليس فى صاحبتها ، يأْكل من آخرها كما يأْكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضاً . وكما يُغْدَى عليه بذلك يُرَاح بمثله فى وقت العشىِّ . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعمائة ألف غلام ، مع كل غلام صحفة من ذهب فيها لون من الطعام ليس فى صاحبتها ، يأْكل من آخرها كما يأْكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضاً . وهى مبالغات مفرطة . وعلى نحو ما اقترن نعيم الجنة عامة بما لَذَّ وطاب من الأَطعمة والأَشربة اقترن بما يَلَذُّ ويُمْتع من الفُرُش النفيسة والملابس الحريرية وزينة الحُلِىِّ . ومعروف أن الإسلام يحرِّم كثيرًا من هذا النعيم فى الحياة الدنيا ، فهو يحرِّم لبس الحرير على المسلمين كما يحرِّم عليهم الأَكل والشراب فى أوانى الذهب والفضة ، وكأَنه عوَّضهم عن ذلك فى الآخرة ، وفى الحديث النبوى : « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأْكلوا فى صِحافهما فإنها لهم (للكفار) فى الدنيا ولكم فى الآخرة » .

ويلاحظ أن كل ما جاء فى آى الذكر الحكيم من النعيم الأُخْرَوِىّ وما علَّق به المفسرون من تفسير مشتركٌ بصفة عامة بين الجنات الأَربع : جنة الفردوس وجنة المأْوى وجنة عَدْن وجنة النعيم . ويبدو أن كل ما بين نعيم الجنتين الأُوليين والأُخريين من خلاف إنما هو فى الدرجة لا فى النوع ، كاختلاف عَيْنى الجنتين الأُوليين من عينى الجنتين الأُخريين ، فالعينان الأُوليان نضَّاختان أَو فوَّارتان وسائلتان ، والعينان الأُخريان جاريتان ، ووراء هذه العيون أَربعة أَنهارٍ تشترك فيها الجنان

جميعاً على نحو ما سنوضح ذلك عما قليل . ولا بأس من أن نذكر هنا وصف مجاهد تلميذ ابن عباس للجنَّة وطبيعتها المكانية ، إذ قال : « أرض الجنة من فضة ، وترابها الزعفران ، وطيبها مسك أذفر (فائح) وأصول شجرها ذهب وفضة وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، والثمر تحت ذلك كله . فمن أكل منه قائماً لم يُؤْذِهِ ، ومن أكل منه قاعدًا لم يؤذه ، ومن أكل منه مضطجعاً لم يؤذه » وأغفل مجاهد فى تصوره أجزاءً من تلك الطبيعة ، إذ لم يذكر العيون والأنهار الجارية والظلال الممتدة والطير الشادى وغير ذلك من النعيم العظيم الذى أشار إليه الذكر الحكيم . وقد كرَّر مرارًا أنه نعيم خالد لا يفنى أبدًا كما لا يفنى أهل الجنة ولا يموتون ولا يهرمون ، بل دائماً شباب تتلألأ فيه نضرة النعيم ، ودائماً يقظة هانئة لا يقطعها نوم كما لايقطعها موت . وعن جابر سئل الرسول صلى الله عليه وسلم أينام أهل الجنة ؟ فقال : « النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون » فقد انتهى عالمهم الأول ، عالم الفساد الذى يتعب فيه الإنسان وينصب ولا يشفيه من نصبه وتعبه سوى النوم . ينتهى هذا العالم بكل ما يتصل به من نوم وغير نوم ، ويستأنف كل واحد من الثَّقَلَيْنِ عالماً آخر ، له حياته الجديدة فيه ، وله هذا النعيم السرمدى الذى لا يفنى ولا يبلى والذى يفيض عليه أبدًا بالابتهاج والسرور ، وإنه لحرىٌّ بكل من وُصف له هذا الجزاءُ وما أعدَّه الله من الثواب العظيم لأهل طاعته أن يسارع إلى عبادته مثنياً على آلائه شاكرًا لنعمائه .

(فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

نضَّاختان فوَّارتان بالمياه ، وأصل النَّضْخ الرَّشُّ بالماء كما يَنْضَخُ رَشُّ

المطر ، وعن ابن عباس تَنْضخان على المؤمنين أهلِ الجنة بالمسك والعنبر والكافور. ودائماً تُذْكر مع الجنة وبساتينها مياه العيون ، وكرَّر القرآن كثيراً ذكر مياه الأنهار وأنها تجرى فى جميع الجنات أو فى كل جنة كما فى آية سورة الحج : (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ولِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) فجنات المؤمنين عامة تجرى فيها مياه الأنهار مداعبة حَصْباءها من الجواهر واليواقيت فَتَسُرُّ الناظرين مَسَرَّةً لا حدود لها بمشهدها ومشهد ما حولها من الأشجار والأزهار والرياحين والغصون المتدلية بالثمار والطير الصادح بالغناء ، مما يضفى على الجنات جمالاً فاتناً يأخذ بأزمة القلوب . ولاحظ ذلك الزمخشرى فقال فى كشَّافه : «لولا أن الماء الجارى من النعمة واللذة الكبرى وأن الجنان والرياض وإن كانت آنق شىء وأحسنه لا تروق النواظر ولا تبهج الأنفس ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجرى فيها الماءُ ـ وإلا كان الأُنس الأعظم فائتاً والسرور الأوفر مفقوداً وكانت كتماثيل لا روح فيها وصور لا حياة لها ـ لما جاء الله بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد ، كالشيئين لا بُدَّ لأحدهما من صاحبه» . وصوَّر الله أنهار الجنة العظيمة ، التى تجرى من تحتها قائلا فى سورة محمد : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ولَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) . والمثل الصفة والنعت ، والآية بيان لأنهار الجنة وأنها أربعة أنواع : أنهار من (ماء) عذب (غير آسن) أو بعبارة أخرى غير متغير الطعم والرائحة . (وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ

يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) ولم تدخله حموضة كما يحدث لألبان الدنيا ، لبن لم يُجْلَبْ من ضَرْع ولم يخرج من بين فَرْثٍ ودَمٍ . (وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ) خمر ليس فيها طعم كريه ولا رائحة مؤذية ، لم تدنِّسها الأرجل والأيدى كخمر الدنيا ، بل هى لذيذة لذةً لا توصف ، وكما نعتت فى الذكر الحكيم على نحو ما مَرَّ بنا فى حديثنا عن عَيْنَى الجنتين الأوليين الجاريتين لا تسبب مرضاً ولا صداعاً ولا خماراً وتَخْدِيراً يذهب بالعقول ، خمر تجرى فى أنهار خالية من كل آفات الخمر الدنيوية حاملة لِلَذَّاتٍ عجيبة . (وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصفًّى) مما فى عسل النحل من الشَّمْع والقَذَى والشوائب ، عَسَلٌ يُسْتَطاب ويُسْتَلَذُّ لخلوه من كل عيب وكل أذًى وبُدئت الأنهار بأنهار الماء لأنه لا يُسْتَغْنَى عنه فى دنيانا ولأن حياتنا وحياة الحيوان وحياة الزروع والنباتات فى الأرض لا تقوم بدون ماء ، وقد قال الله تعالى : فى سورة الأنبياء : (وَجعلْنَا مِن الْمَاءِ كُلَّ شَىءٍ حىٍّ) ، وكرَّر كثيراً أنه يُحْيِي به الأرض المُجْدبة فتخرج نباتاتها وأشجارها وثمارها كما يُحْيِي الدواب والأناسىَّ وكأنه جزءٌ لايتجزأ من الحياة ، ولذلك كان طبيعيًّا أن تتقدم أنهاره سواها من الأنهار . وتبعتها أنهار اللبن لأنه يجرى مجرى الطعام ، فهو شراب وطعام فى آن واحد ، شراب سائغ للشاربين لذيذ للطاعمين . وتلتها أنهار الخمر ، لأن الخمر إنما تكون بعد الطعام والارتواء ، إذ يشتاقها شاربها ويتشوَّف إليها . ثم تأتى أنهار العسل بشرابها المختلف الألوان فى دنيانا باختلاف ما تأكله النحل من النباتات والثمار ، وليس ذلك فحسب ، بل هو فى دنيانا يُسْتَخْدَمُ ترياقاً وشفاءً للمرضى ينْجع فى مرضهم ، ويُبْرِئهم منه ، ومما قد يعْرض لهم من بعض أطعمتهم وأشربتهم ، ولذلك جاءت

أنهاره فى الآية متأخرة . وعن أنس بن مالك قال : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخاديد فى الأرض (أى فى مجار مشقوقة كمجارى الأنهار الدنيوية) والله إنها لتجرى سائحةً على وجه الأرض ، حافاتها قباب اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر (الفائح) » . وفى تفسير الألوسى : « قيل إن هذه الأنهار تمثيل لما يجرى مجرى الأشربة فى الجنة بأنواع ما يستطاب منها أو يستلذ فى الدنيا ، بالتخلية عما ينقصها وينغِّصها ، والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها » . وسواء أكانت الأنهار والعيون والمياه تمثيلا أم تحقيقاً فلا شك أنها تعبر عن نعيم رائع فى الحياة الآخرة ، وهو وكل ما يصوره أو يمثِّله آلاءٌ ناطقة بأفضال رب العالمين وأنه يستحق من الثقلين كل خضوع وكل طاعة وكل شكر وكل حمد وكل ثناء .

(فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

اختلف المفسرون هل عَطْف النخل والرمان على الفاكهة من باب عطف الأشياء المختلفة بعضها على بعض أو من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى فى : سورة البقرة : (حافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الوُسْطَى) . والقائلون بالرأى الأول يقولون إن النخل والرمان عند العرب بمنزلة القمح ، لأن النخل عندهم قُوتُهم والرمان كالثمرات وكانوا يتقوَّتون به أيضاً لكثرته عندهم ، ولذلك أُفْردت عنهما الفواكه . أما القائلون بالرأى الثانى وهو أن النخل والرمان من الفواكه فيقولون إنهما خُصِّصا بالذكر لفضلهما وحسن موقعهما من الفاكهة . وقيل بل عُطفا أو أُفردا لأن ثمر النخل وهو التمر فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواءٌ لاستخدامه فى فساد المعدة ، وهما بذلك لا يخلصان

للتفكه ، ولهذا عُطفا على الفاكهة كأنهما نوعان مختلفان عنها ، ومن هنا ذهب أبوحنيفة إلى أن من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو تمرًا لم يحنث خلافاً لصاحبيه مالك والشافعى . وقال الفخر الرازى إن الله خَصَّ فى الآية التمر والرمان بالذكر دون غيرهما من الفواكه لأنهما يمثّلان نوعين متقابلين أحدهما حلو والآخر حامض ، وأحدهما حار أو من فواكه البلاد الحارة والآخر بارد أو من فواكه البلاد الباردة ، وأحدهما أشجاره سامقة والآخر أدنى إلى القصر ، وأحدهما لا حجاب عليه والآخر محجوب بغلاف أو غطاء . فهما كالضدين مما يجعل ذكرهما يتناول الإشارة إلى كل ما بينهما من الفواكه . وقال الفخر أيضاً : إن هذه الآية نَوَّهت بالفواكه الشجرية ، أما الفواكه الأرضية مثل البطيخ فقد تضمنته الآية السابقة (مُدْهَامَّتَانِ) وكأنها تشتمل أنواع الخضر وما يدخل فيها من الفواكه الأرضية التى لا تقوم على ساق . وقيل إن الشجر فى الجنة لا يحمل جميع ألوان الثمار فقط. بل يحمل أيضاً الحلىّ والحُلَل . وقيل أيضاً إن من يشتهى ثمرة تتدلّى شجرتها إليه ، فيقطف منها أو يتناول ما يريد . وبمجرد أن ينزع ثمرة من مكانها تخلفها ثمرة للتَّوِّ وقيل بل ثمرتان ، وإذا كان لها كمّ برزت منه ، وإذا كان لها نواة خَلصت منها . وكما تحمل الأشجار الفواكه وتهيّئها للمتقين تهيئ لهم أيضاً الظلال الممتدة ، ظلالا لا باردة ولا حارة بل معتدلة يحسون فيها الراحة على نحو ما يحس رجل الصحراء فى ظلال شجرة تظهر له فجأة عبر الرمال الشاحبة ولهيب الشمس اللافح، بل إن راحة الجنان وظلالها أمتع وأعظم ، وهى ظلال لا تقى من شمس ولا من حر ، فليس فى الجنة حر ولا شمس كما مرَّ بنا ، وإنما زيادة فى

النعيم والمتاع . وعنه عليه السلام أنه قال : «إن هواء الجنة سَجْسَجٌ لا حَرٌّ ولابرد» والسجسج الظل الممتد كالوقت بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وهو ظل يصحبه ضياء مستديم لا ليل فيه ولا نهار ولا شموس ولا أقمار . ظل ممدود وعيون متفجرة وأنهار جارية وفواكه كثيرة وحدائق وبساتين وأشجار من كل صنف ، لا تقاس إليها أشجار الدنيا وما تحمل من ثمار ، أشجار فواكه ونخل ورمان تحار فيها الأنظار . وقد تعرَّض المفسرون لبعض أوصافها ونعوتها ، من ذلك قول ابن عباس عن نخل الفردوس : «جُذُوعُها زمرُّد أخضر ، وكَرْبها (كرانيفها) ذهب أحمر ، وسَعَفها كُسْوَةٌ لأهل الجنة منها مقطَّعاتهم (ثيابهم) وحُلَلهم ، وثمرها أمثال القِلال (جمع قلة) والدِّلاء (جمع دلو) وهو أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزُّبْد ، ليس فيه عَجَمٌ (نَوَى) كلما نُزعت ثمرة عادت مكانها أخرى». وعن أبي سعيد الخُدْرِيّ : أصول نخل الجنة فضة ، وجذوعه فضة ، وسعفه حُلَلٌ ، وحمله الرُّطب . وقيل إنه لا توجد فى الجنة شجرة إلا وساقها وغصونها من ذهب ، وقيل بل الأغصان تكون لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً ، وقيل يغشاها فراش من ذهب مسرةً ومتعة للناظرين . وذكر بعض المفسرين فى وصف الرمان أنه حار رطب يليِّن الصدر والحلق ويجلو المعدة وينفع من الخفقان ، لتوضيح أنه طعام ودواء معاً . وهو تصوير ينطبق على رُمَّان الدنيا أما فى الجنة فلا مرض ولا حاجة إلى دواء ، وكل ثمرة هناك فهى للتفكه . وأبعد بعض المفسرين فذهب إلى أن ذكر الرمان ، الذى يتخذ للدواء كما يتخذ للطعام ، مع أصحاب اليمين وجنتيهما يدل على ضعف استعدادهما بالقياس إلى المقرَّبين أصحاب الجنتين الأُوليين ، إذ الدواء إنما يهيَّأُ ويُعدّ لضعيف المزاج ،

وقد قلنا آنفا إن الرّمّان فى الجنة لا يكون دواء،وإنما يكون فاكهة خالصة. وذكر الله فى سورة النبأ من فواكه الجنة الأعناب . وجميعها تجسم جوانب من نعيم الجنان وما ينبغى على الثقلين إزاءه من مضاعفة الثناء والشكران لولىّ الإنعام والإحسان .

(فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

(فِيهِنَّ) أى فى الجنتين المذكورتين وما أعدَّ الله لأهل اليمين من النعيم نساءٌ (خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) . قرئت (خَيْرات) بسكون الياء للتخفيف ، وقرئت بتشديدها ، والتشديد هو الأصل ، يقال امرأة خَيْرة وخَيِّرة كقوله عليه السلام : « هَيْنون لَيْنون » بتسكين الياء تخفيفاً ، والأصل هيِّنون ليِّنون . وقيل المراد خيِّرات الأخلاق فاضلات . ووصف بعض المفسرين الخيرات فقال : لَسْنَ بدَمِرات ولا متطلعات ولا متشوِّفات ولا ذرِبات ولا سَلِيطات ولا طمَّاحات ولا طوَّافات فى الطرق . وكأنه يصف الخيرات فى دنيانا ، والدمرات من الدَّمْر وهو الرائحة المستكرهة من عرق أو غيره . والمتطلِّعات من التطلع إلى غير أزواجهن . والمتشوِّفات المتزينات أى أن جمالهن متصنَّع لا طبيعى . والذَّرِبات الشرثارات . والسليطات طويلات اللسان . والطَّمَّاحات الشَّرساتُ الناشزات اللائى لا يرضين دائماً عن الزوج . والطوافات فى الطرق الدوارات اللائى لا يمكثن فى البيت ولا ينتظرن فيه أزواجهن . وكل ذلك إنما يمكن أن يقال فى نساء الدنيا . وقيل معنى (خَيْرات) مختارات اختارهن الله وأبدع خَلْقهن أو تكوينهن وأخلاقهن أو شمائلهنَّ . والأولى أن تفسر الكلمة بحسن الأخلاق لمجىء كلمة (حِسَانٌ) بعدها ، فهن فاضلات حسناوات ، وهما نعتان إلهيَّان لهن يرفعانهنَّ إلى الذروة العليا . وفى بعض كتب التفسير : « لو أن خَيْرَةً من

(خَيْرات حِسان) اطلعتْ من الجنان لأَضاءَت لها الأَرض والسماء ولقهر ضوءُ وجهها الشمس والقمر . ولعصابتها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » وقيل أيضاً : «يأْخذ بعضهن بأَيدى بعض ويتغنين بأَصوات لم تسمع الخلائق بأَحسن منها ولا بمثلها قائلات نحن الناعمات فلا نبؤس ، الراضيات فلا نسخط الخالدات فلا نموت . نحن (خَيْرات حسان) حبيبات لأَزواج كرام » . وقيل هن نساء الدنيا . وقيل بل الحور العين وأَنهن إذا تغنين هذا الغناء أَجابهن المؤمنات من نساء أَهل الدنيا : نحن المصلِّيات وما صَلَّيْتُنَّ ، ونحن الصائمات وما صُمْتُنَّ . ونحن المتوضئات . وما توضَّأْتُنَّ . ونحن المتصدقات وما تصدقتن . فيغلبنهنَّ بتصدقهن وصيامهن وصلاتهن وعبادتهن ! ويُرْوَى أن الله يُلبس وجوه النساء النور . وينشئهن نشأَة جميلة جديدة كما قال فى سورة الواقعة : (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُباً أَتْرَاباً لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) فهن يَعُدْنَ خلقاً جديدًا . يَعدْن شابات (أَبْكَارًا عُرُباً) أَو بعبارة أُخرى متعشقات لأَزواجهن متحببات (أَتْرَاباً) أو بعبارة أُخرى مماثلات لهم فى السن والشباب . فلا طفولة فى الجنة ولا هرم ، وإن العجوز العمشاء (ضعيفة البصر) الشمطاء (المشتعل رأسها شيباً) التى بلغت من الكبر عِتِيًّا لتعود شابة حسناء كما تعود الطفلة والصبية . ويُرْوَى أَن عجوزًا من بنى عامر كانت عند السيدة عائشة رضى الله عنها . فتعرضت للرسول صلى الله عليه وسلم قائلة : «يا رسول الله ادْعُ الله أَن يدخلنى الجنة ، فقال لها : يا أُمَّ فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز . فولَّت وهى تبكى ، فقال عليه السلام : أَخبروها أَنها لا تدخلها وهى عجوز ، إن الله يقول ، وتلا الآية السالفة . فسُرِّى عنها » . ويقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم

سُئل عن المرأة تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت ثم تُبْعَثُ وتدخل الجنة ويدخلون معها ، مَنْ يكون زوجها ؟ فقال إنها تخيَّر بينهم فتختار أحسنهم (كان) أخلاقاً . وإذا كان المؤمنون قد وُعدوا بثياب الحرير والسندس والإستبرق وبأن يتزينوا ويتحلَّوا بأساور الفضة والذهب واللؤلؤ فطبيعى أن يكون للمؤمنات من ذلك حظ. لا يقل عنهم إن لم يفقنهم فيه . أما نعيم الطعام والشراب فهم فيه سواء . ومعروف أن الإناث فى العربية يندرج خطابهن فى خطاب الرجال فلا يفردن عادة بالحديث ، ومع ذلك ذكر القرآن مرارًا أنهم يشركون أزواجهم فى النعيم كقوله جَلَّ شأنه فى سورة الزخرف : (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) أى تُسَرّون بما فيها من متاع ، وقوله فى سورة الرعد : (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) . وهى نعم وآلاء تعمُّ الثقلين ذكورًا وإناثاً ، ولن يستطيعوا ، مهما صنعوا ، أن يؤدوا لربهم ما يستحقه إزاءها من شكر وثناء .

(حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ * فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الحُور جمع حَوْراء ، واختلف المفسرون فى تفسيرها على وجوه ، فقيل الحَوْراء البيضاء بَضَّة البشرة صافية اللون التى يرَى الناظر إليها وجهه فى صفحة وجهها كأنها مرآة لشدة صفائها . وقيل الحَوْراء التى يتلألأُ وجهها بياضاً . وقيل الحوراء هى التى يبلغ من جمالها أن يُرَى ساقها من تحت سبعين حلة . وقيل سميت حَوْراء لأن الطَّرْفَ يحار فى حسنها وبياضها وصفاء لونها . وقيل : بل الحوراء هى التى تمتاز فى بصرها بالحَور وهو نقاءُ

بياضِ العينِ فى شدة سواد الحَدَقَةِ . ووُصفت الحورُ فى بعض الآيات بأنهن (عِينٌ) جمع عَيْناء وهى الواسعة العينين . ومعنى (مَقْصُورَاتٌ) محبوسات أو مكتنَّاتٌ أو مستورات فى الخيام سَتْرَ صِيانة وتكرمة . وقيل : بل معنى الكلمة مقصوراتٌ قلوبهن وأبصارهن ونفوسهن على أزواجهن . والأول أظهر وأقرب . وقيلت آراء متعددة (فى الخيام) فقيل إنها بيوت من لؤلؤ ، وعن ابن عباس أن كل بيت أو كل خيمة فرسخ فى فرسخ ولها أربعة آلاف مصراع من ذهب ، وقيل بل لها سبعون باباً من دُرٍّ . وعن بعض المفسرين أن سحابة أمطرت من العرش فخُلقت الحور من قطرات الرحمة ، ثم ضُرب على كل واحدة منهن خيمة على شواطئ الأنهار سَعتها أربعون ميلا وليس لها باب ، حتى إذا دخل المؤمن الجنة انصدعت الخيمة عن بابٍ ليعلم أن أبصار المخلوقين من الملائكة وغيرها لم تأخذها ، فهى مقصورة قد قُصر بها عن أبصار المخلوقين . ولعل هذا كله تفسير وتعليق لما أُثِرَ عن عمر رضى الله عنه من أنه حين سئل عن الخيام فى هذه الآية ، قال : الخيمة دُرَّةٌ مُجوَّفَةٌ . ورَوَى بعض المفسرين أن الحور العين خُلِقْن من الزَّعْفران وأن المؤمن من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تُفَّاحها ، فتنفلق فى يده ، فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة شىء ! ورَوَى القرطبى عن ابن عباس أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع القدمين إلى الركبة من الزعفران ومن الركبة إلى الصَّدْر من المسك الأذفر (الفائح) ومن الصدر إلى العنق من العنبر الأشهب (الأبيض الضارب إلى الأسود) ومن العنق إلى الرأس من الكافور الأبيض ، عليها سبعون ألف حُلَّة مثل شقائق النعمان (نوع من الورد) إذا أقبلت يتلألأُ وجهها نورًا ساطعاً كما تتلألأُ الشمس لأهل الدنيا ، وإذا

أدبرت يُرَى كَبِدُها من رقة ثيابها وبَشَرتها ، فى رأسها سبعون ألف ذُؤابَةٍ من المسك الأذفر ، لكل ذؤابةٍ منها وصيفة ترفع ذيلها وهى تنادى : هذا ثوابُ العاملين . وواضح أن الحور العين يَسْتَحِلْنَ فى مثل هذه الصورة إلى تماثيل لا روح فيها ولا حياة ، وما نظن أن نسبتها لابن عباس صحيحة . ويقول بعض المفسرين إنه بلغهم فى الرواية أن لكل مؤمن سبعين من الحور واثنتين من ولد آدم ، ويجعل نفر منهم الحور اثنتين وسبعين ، ويقولون إن المؤمن إذا دخل الجنة مضى إلى الأولى منهما فى غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلَّل باللؤلؤ عليه سبعون زوجاً من سندس وإستبرق . وإنه ليبلغ من صفاء بشرتها أن يُرَى مخ ساقها من وراء سبعين حلة تلبسها كما يرى الشراب فى الزجاج . وتتكاثر أعداد هؤلاء الحور عند بعض المفسرين حتى لينقل عنهم الشيخ إسماعيل حقى فى تفسيره المسمى بروح البيان أن الشخص من أهل الجنة يتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف ثَيِّب وثمانية آلاف بكر يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا ! ويتعرض بعض المفسرين لعدد من يلقاهم المؤمن من هؤلاء الحور فى اليوم الواحد أو فى الغداة ، فمنهم من يجعلهنَّ سبعين ومنهم من يجعلهن مائة ! وكان ينبغى أن يحتاط أسلافنا فيما يروون من ذلك ؛ لأن صلة الرجل بالمرأة فى الآخرة لا نعلم حقيقتها ولا يصح أن نتمثلها فى صورة الصلة الدنيوية وما يتصل بالغريزة النوعية إذ لا ولادة هناك ولا حاجة لولد أو أولاد . على أن هناك أحاديث صحيحة تعارض الأعداد السابقة من الحور والأزواج الكثيرات ، فقد روى ابن كثير فى تفسيره للآية الثالثة والسبعين من سورة الزمر حديثاً عن ابن حنبل ، وقال رواه البخارى ومسلم ، وهو بالنص : « قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم أول زمرة تلج (تدخل) الجنة ، صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوَّطون فيها ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم (مواقد البخور) الأُلُوَّة (العود يتبخَّر به) ورَشْحُهم المسكُ ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبِّحون الله تعالى بكرة وعَشِيًّا». والزوجات فى هذا الحديث لا يتجاوزن اثنتين . وروَى ابن كثير فى تفسيره لسورة الغاشية عن الصحابى الجليل أُسامة بن زيد أنه قال فى بعض حديثه عن الرسول الكريم : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا هل من مشمِّر للجنة ؟ هى ورب الكعبة نورٌ يتلألأ . وريحانةٌ تهتزّ . وقَصْرٌ مَشِيد ، ونهر مطَّرد ، وثمرةٌ نَضيجةٌ ، وزوجة حسناء جميلةٌ ، وحُلَلٌ كثيرة ، ومقامٌ فى أَبدٍ فى دار سليمة ، وفاكهة وخُضْرة ، وحَبْرة (مَسَرَّة) ونعمة ، فى مَحَلَّة (منزل أو بناية) عالية بهيَّة . قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمِّرون لها قال : قولوا إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله » . وواضح أن الحديثين ينقضان ما تبارى فيه بعض المفسرين من إحصائيات الحور العين . فضلا عن إحصائيات الصلة اليومية بينهن وبين أزواجهن . وبحقٍّ لاحظ بعض المفسرين أن الله جَلَّ شأنه عبَّر عن الصلة الجديدة بين الأزواج وزوجاتهم فى الحياة الآخرة بقوله فى سورتى الدخان والطور : (وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) ولم يقل : وزوجناهم حورًا ، مع أن الفعل يتعدَّى إلى مفعولين كما جاء فى سورة الأحزاب : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) . وذكر القُرْطبى فى تفسير سورة الطور أن يونس بن حبيب العالم اللغوى المشهور فى القرن الثانى الهجرى قال : « تقول العرب زوَّجته امرأة وتزوجت امرأة وليس من كلام العرب تزوجت بامرأة ، وقول الله عَزَّ وجَلَّ :

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) أى قرنَّاهم بهن » وقال الراغب الأصفهانى : « لم يجئ فى القرآن زوجناهم حورًا كما يقال زوجته امرأة تنبيهاً على أن ذلك ليس على حسب المتعارف فيما بيننا من الزواج » . وبذلك تسقط كل الصور الخيالية التى أنشأتها فى مخيلات بعض الأسلاف كلمة (وزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) فالزواج فى الآية ليس على أصل معناه فى الدنيا إنما هو اقتران والتقاء يتناسب مع النشأة الثانية . ويبدو أن كلمة الحور العين التى لا يَعْدو ذكرها عدد أصابع اليد الواحدة فى الذكر الحكيم هى التى فسحت للخيال عند بعض السابقين . ويقول القرطبي فى التعليق على الآية السالفة : (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) : « وقد قيل إن الحور العين المذكورات فى القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقْنَ فى الآخرة على أحسن صورة قاله الحسن البصرى » وذكر الألوسى فى تفسير الآية الكريمة : (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) أن الشعبى كان يرى أنهن من نساء الدنيا . ولا شك أن كل متاع أخروى فوق كل متاع دنيوى . ولكنه متاع مخالف فى النوع والجنس ، متاع يلائم الحياة الآخرة ، لا ما بين الزوجة وزوجها فحسب ، بل كل متاع مما صوره القرآن الكريم فى الثياب والحلى والطعام والشراب ، مما جعل ابن عباس يقول – كما ذكر ذلك القرطبى فى تفسير الآية الخامسة والعشرين من سورة البقرة – :ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء . وفى رواية أخرى عن ابن كثير فى تعليقه على آية الرحمن السابقة : (فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ) : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء ، وكأنها أسماء لتجسيد المتاع الأخروى الذى يفوق كل متاع دنيوى مشابه ، وهى أسماء لا تنى بتصويره ، فوراء ما تصوره متاع عظيم كما قال جَلَّ ذكره فى سورة

السجدة متحدثاً عن نعيم المتقين : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فلا أحد يعلم بل لا تعلم أى نفس من نفوس البشر ما ادَّخر الله لعباده من المتاع الذى تقرُّ به عيونهم وتُسَرُّ به نفوسهم . وفى الحديث عن الرسول عليه السلام : « يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطَر على قلب بشر » . وهو بذلك متاع فوق كل ما يتخيله الإنسان ، وحسبنا أن نعلم ذلك وألا نحاول تمثّله بصور دنيوية تحكيه ولا بصور غالية مغرقة فى الغلو كأن نتصور الحور العين لا عشرات بل مئات بل آلافاً ، أو نتصور ما قيل من أن الخيمة من خيام المقصورات المذكورات فى الآية التى نحن بصددها قُبَّة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت منصوبة فى رقعة واسعة سعة ما بين الجابية فى شرقىّ الأُردن وصنعاء فى اليمن . أو نتصور أن السرير من أسرة الجنة من ذهب خالص مكلل بالزبرجد والدر والياقوت ويشغل رقعة فسيحة كالرقعة الممتدة بين مكة والعقبة . أو أن نتصور أن عنقود النخل فى الجنة اثنا عشر ذراعاً وأن طيرها فى حجم الإبل الضخمة . فكل ذلك وما يشبهه من الصور الخيالية عند المفسرين لا يبلغ شيئاً من تصوير متاع الجنة الذى أشارت إليه آية سورة السجدة وأشار إليه الحديث الشريف ، مما يوجب على الثقلين مواصلة الحمد والثناء على رب العالمين .

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

تكرار لبيان أن نساء الجنتين الأُخريين يتصفن بصفات نساء الجنتين

الأُوليين (قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) وأنه لم يمس الإنسيات منهن أحدٌ من الإنس ولا مسَّ الجنيات أحد من الجن . وليس معنى ذلك أن أزواجهن يتمتعون بهن على نحو ما تمتعوا بهن فى الدنيا من حين كن عَذارى إلى أن فرق الموت بينهما ، فالمتاع ، كما قلنا آنفاً ، مختلف ، وحقيقته مما يخفى على الثقلين . ولا ريب فى أنه لا يماثل المتاع الدنيوى ، كما لا ريب فى أنه يفوقه فى النوع والدرجة . ومن الغريب أن بعض المفسرين حاولوا أن يستنبطوا من هذه الآية الكريمة أن الجن يمكن أن يعاشروا الإنسيات وأن الإنس يمكن أن يعاشروا الجنيات ، وقالوا إن العقل لا يُحيل ذلك وإن الله حين طرد إبليس من رحمته قال له أمهلنى إلى يوم البعث فأمهله ، غير أن إبليس ولَّى يتوعد آدم وأبناءه من البشر بإغوائهم بمختلف الطرق ، ونهره الله جَلَّ شأنه هو ومن تبعه منهم كما جاء فى سورة الإسراء قائلا له : (اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا .. وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) ، وزعموا أن المشاركة فى الأولاد التى حكاها الله تعنى تلك المعاشرة . والآية إنما تعنى الإغواء والإضلال بالأموال والأولاد ولا تحمل دلالة صريحة على ما زعموه . واستدلوا ببعض الأساطير وما جاء فيها من أن أم بلقيس ملكة سبإٍ كانت جِنِّيَّة ، وهى مجرد أُسطورة أو قل حديث خرافة لا يثبت شيئاً . ومثله كثير فى الخرافات العتيقة عند جميع الشعوب سقط إليها من عصور تأليه الأسلاف للملوك وما كان يقال حينئذ من أنهم أبناء آلهة أو من نسلهم . ولعل من العجب العجاب أن يضاف إلى ابن عباس أنه قال إن الخنثى المشكل من ولد الجانّ ، إذ يسبق الشيطان الرجل إلى زوجته حين لا يعتزلها فى المحيض ، فتحمل منه ، فتجىء بولدها المخنث ، وهو محض

خيال . ويقال إن قوماً من أهل اليمن كتبوا إلى الإمام مالك يسألونه عن معاشرة الإنسيات لبعض الجن ، فأوضح لهم خطورة الأخذ بهذه الفكرة وأنها تجرّ إلى فساد خطير فى الأُمة ، إذ قد تزعم من حملتْ عن طريق غير شرعى بأنها حملت من الجن . وهذا جميعه تصور خاطئ فإنه لا يمكن أن تحدث معاشرة بين جنى وإنسية أو بين إنسى وجنية لا ختلاف الطبيعتين وتباين الجنسين ، فقد خلق الله الإنسان كما جاء فى هذه السورة (مِنْ صَلْصالٍ كَالفَخَّارِ وخَلَقَ الْجانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) وتمتنع المعاشرة ويمتنع التناسل مع هذا التباين الشديد . والله عَزَّ سلطانه يمتنُّ على الثقلين ذكورًا وإناثاً ، بنعمه وآلائه فى خلق النساء فى الآخرة على أجمل صورة ، صورة الشابات العذارى الجميلات . وهى صورة ينبغى أن يتلقاها الإناث والذكور جميعاً بالشكران لله والإخلاص فى الطاعة .

(مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ * فَبِأَىِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) :

الرَّفْرَفُ : الفُرش المرتفعة ، وقيل ما تدلَّى من الأسرة من نفيس الفرش ، وقيل المفارش . وقيل البسط ، وقيل حواشى الفرش والبُسط . ، وقيل كل ثوب عريض ، وقيل الرقيق من الديباج ، وقيل أطراف الخباء الواقعة على الأرض وما تدلَّى من جوانب الدِّرْع . وفى الخبر عن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : فرُفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة . وقيل الرفرف ضرب من الفرش يشبَّه بالرياض ، ويقال إن بساط كسرى أنو شروان حاكم إيران قبيل الإسلام كان ستين ذراعاً فى ستين ذراعاً يُبْسَط . له فى إيوانه منظوماً

باللؤلؤ والجواهر الملونة بألوان زهر الربيع . وليس بمستبعد على الله أن تكون أبسطة الجنة ورفارفها أعظم وأروع . وقيل الرفرف ضرب من الوسائد . وقيل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفُّ إذا صار غَضًّا نضيرًا ، وهو لذلك رياض الجنة . وقيل بل الرفرف من رَفَّ يَرِفُّ إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر لتحريكه جناحيه فى الهواء وتحويمه حول الشىء يريد أن يقع عليه ، وكأنه بذلك بِساطٌ أو شىء إذا استوى عليه صاحبه رفْرَفَ به وارتفع أو أَهْوَى كالمراجيح يميناً وشمالاً ورَفْعاً وخَفْضاً . وكأنه بساط طائر كبساط النبى سليمان يتنزّه فيه المؤمنون والمؤمنات . وفى حديث المعراج أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما بلغ سِدْرَةَ المُنْتَهَى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى سَيِّد العرش ، وذُكر أنه قال : « طار بى يخفضنى ويرفعنى حتى وقف بى بين يدى ربى » . ولما حان انصراف الرسول تناوله فطار به خَفْضاً ورفعاً يهوى به حتى انتهى إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه . والرفرف فى هذا الحديث مسخَّر بين يدى الله تعالى مختص بخواص الأُمور فى محل الدنو والقرب . وكأنه يسخَّر فى الجنة ليكون متكئاً وفُرُشاً لأهل اليمين وقيل ليرفرف بهم على حافات أنهار الجنة وبين رياضها حيث شاءوا ومعهم زوجاتهم ، أو كما قال بعض المفسرين ليذهبوا إليهن ويعودوا من عندهن . والرَّفرف إما اسم جنس جمعى وإما اسم جمع واحده رفرفة . وعلى كلا الاحتمالين يصح وصفه بقوله تعالى (خُضْرٍ) والخضرة من الألوان التى تجذب الأنظار إليها والتى يميل إليها الإنسان بطبعه لانتشارها تحت بصره فى الطبيعة . (وَعَبْقَرِىٍّ) مثل رفرف إما اسم جنس جمعى وإما اسم جمع واحده عبقرية ولذلك وُصف بقوله عز شأنه (حِسَانٍ) أى بالجمع لا بالمفرد . وعبقر موضع

تزعم العرب أنه من أرض الجِنِّ ، ويُنْسَبُ إليه كلُّ فائق جليل من الإنسان ، وكلُّ شيء بلَغَ الغاية فى جودة صنعته ، وكل غريب مما يَعْسر عمله ، وكل نادر من فُرُش أو ثياب . وعلى نحو ما اختلف المفسرون فى معنى الرفرف اختلفوا فى معنى العبقرى ، فقيل ثياب منقوشة تُبْسَطُ ، وقيل الطَّنافسُ الثِّخان وهى الأَبسطة ذات الأهداب الرقيقة ، وقيل الديباج الغليظ ، وقيل الثياب الموشَّاة وأنها تُنْسَبُ إلى أرض يُصْنَعُ بها الوشى ، وقيل الديباج الموشَّى ، وقيل البُسط ذات الصور ، وقيل البُسط ذات الوشى ، وفى الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم «كان يسجد على عَبْقَرِىّ» أى بُسط تكون فيها الأَصباغ والنقوش . وقد جعل الله العبقرىَّ الحسان مثلا لفُرش أهل الجنة مخاطباً العرب بما تعارفوه حتى يتمثلوا نعيم الجنة فى تلك الفُرش وكل ما يتصل بها من مجالس وأكسية حريرية ووسائد وأبسطة منقوشة وطنافس تفوق كل خيال . وواضح أن السورة جَسَّمت نعم الجنة المادية بكل ما يتصل بها من رياض وظلال وعيون ومياه جارية تسر العين والنفس ، ومطاعم وفواكه تُمْتع وتلذُّ طاعمها ، وفرش ديباج ووشي تبهج الناظرين ، وحور عين فى أروع ما يكنَّ من جمال وزينة . وكل ذلك إنما هو تصوير لنعيم الجنة بما نشاهده ونبصره فى دنيانا وهو فوق ذلك درجات ، إنه نعيم الجنة الذى لا يلحقه ولا يشبهه ولا يدنو منه أى نعيم فى تلك الدنيا الفانية ، وإنه لخليق بكل أفراد الثقلين من الإنس والجن أن يتنافسوا فيه ويتسابقوا ، بعبادة الله حق عبادته وشكره على آلائه ونعمه التى لا يستطيع أن ينهض بحقها أى شكر أو ثناء .

(تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) :

(تبارك) اختلف المفسرون فى معناه . فقيل معناه تقدَّس ، وقيل تعالى ، وقيل تعالى عطاؤه وزاد وكثر . وقيل تبارك تفاعل من البركة وهى الكثرة من الخير أى كثر خيره وفضله . وقيل تبارك من برك الشىء إذا ثبت ، فمعناه ثبوت الخير والإنعام الإلهى ودوامهما . قال الطِّرِمَّاح :

تباركتَ لا مُعْطٍ لشىءٍ منعتَه وليس لما أعطيتَ ياربِّ مانعُ

و (ٱسْمُ رَبِك) فى الآية هو الاسم الذى افتتح الله به السورةَ الكريمة فقال : (الرَّحْمن) ومرَّ بنا تفسير (ذِى الْجلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فى قوله جَلَّ شأْنه : (وَيَبْقَى وَجْهُ ربِّكَ ذُو الْجلَالِ والْإِكْرَامِ) . وقد قلنا هناك إن (الجلال) يفيد العظمة والهيبة ، والإكرام يفيد الإنعام واللطف ، فهو ذو الجلال الخليق بالمهابة والعبادة والطاعة ، وهو رب الإكرام الخليق بالحمد والشكر والثناء . وقد جعل الآية الأُولى : (وَيَبْقَى وجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجلَالِ وَالْإِكْرَامِ) خاتمة لنعم الدنيا الفانية وأَنها جميعاً إلى زوالٍ . والبقاءُ لله وحده ذى الجلال صانع الكون ومنشئه نشأَتَه الأُولى ، وإنه لمنشوءه النَّشْأَةَ الثانية ومفيضٌ عليه من إكرامه وإحسانه . أما الآية الأَخيرة : (تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فقد جعلها خاتمة لنعمه وآلائه الوافرة فى الآخرة وأَنه حرىّ أَن يتجه إليه الثقلان ذكورًا وإناثاً ويقدِّسوا اسمه (الرحمن) ويستغرقوا فى نور جلاله وخضمّ جوده . وعلى نحو ما بدأَت السورة بذكر (الرحمن) خُتمت به تكرارًا كريماً لبيان رحمة الله ورأْفته وإنعامه وإحسانه وأُنسه وبرِّه بالثقلين برًّا متصلاً فى الحياتين الأُولى والآخرة . وإنَّ برَّ

الآخرة وما أُعِدّ فيها للمتقين لفوق كل بِرٍّ يمكن للإنسان أن يتصوره . وقد ذكرت السورةُ كثيرًا من وجوه البِرِّ والآلاءِ المادية فى الحياة الآخرة ، وتتردد بجانبها فى مواطن كثيرة من الذكر الحكيم وجوه برٍّ وآلاء نفسية وروحية رفيعة ، وهى تبدأ منذ البعث ومسيرة المؤمنين فى ساحات القيامة إذ يمتد نورٌ من حول كل منهم يعمُّ جميع جهاته ، كما قال تعالى فى سورة الحديد : (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا) ، فلهم نور يضِيء حولهم متقدماً لهم وعن أيمانهم يهتدون به طوال سيرهم على الصراط وإلى الجنة ،وقبل ذلك عند الحساب وتلقِّى كل مؤمن ومؤمنة الكتاب . حتى إذا دخلوا الجنة أصبحوا (فى عِيشَةٍ راضِيَةٍ) عيشة كلها خلود وصحة وخلو من جميع المنغصات والشوائب ، لا حزن فيها على فقيد ولا على مريض ولا من بؤس وشقاء ، بل فرح دائم ومسرة كما جاء فى سورة الزخرف : (يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِايَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) أى تُسَرّون بجميع أنواع السرور . وجعل منها بعض المفسرين الغناء وأن الحور يتغنين فى الجنة بأصوات لم يُسْمعْ مثلها قط. ، وهو سرور أعم من الغناء ، سرور لا حدود له ، كما قال تعالى ذكره : (وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) سُرورًا فى قلوبهم ونضرة وجمالا وبهاء فى وجوههم ؛ وإنهم ليردِّدون كما جاء فى سورة فاطر : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) إنها تخلو من كل ما يسبب الحزن والغَمّ فليس فيها

مصائب ولا كوارث وليس فيها ما يسبب نَصَباً أو تعباً ولا لغوباً أو إعياء ، أو بعبارة أخرى ليس فيها ما يسبب عناء وشقاء ولا ما يسبِّب لوعة وحسرة . وكذلك ليس فيها ما يؤذى النفوس المخلصة الصادقة من ساقط الكلام والكذب الصُّراح كما جاء فى سورة النَّبأ : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّاباً) أو قل لا يصل إلى آذانهم أى كلام قبيح من فحش أو شتم أو مما يجرُّ إلى إثم كما جاء فى سورة الواقعة : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيماً) ، فبعضهم لا يؤثِّم بعضاً ، إنها تخلو من كل إثم ومن كل باطل ومن كل فحش ومن كل كذب ومن كل لغو ومن كل ضغينة وحقد كما جاء فى سورة الحِجْر فى صفة أهل الجنة : (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) فلا غِلَّ ولا اضطغان ولا تحاسد ولا تباغض ، بل أخوة وصداقة ومودة مخلصة نقية تجردت من كل رياءٍ ومن كل خداع ومن كل غاية وغرض . إنهم إخوان الصفاء ، تصافت قلوبهم وتوادت وتحابَّت وتآخت تآخياً مستحكماً وثيقاً إلى أبد الآبدين ، فى تلك الدار الهنيئة التى سماها الله : (دار السلام) أو بعبارة أُخرى دار الأَمن والطمأنينة ، فقد انتهت الدنيا بكل ما كان فيها من رجاء وخوف وكل ما كان فيها من جزع وفزع وهلع ، وأصبح المؤمنون والمؤمنات فى دار السلام دار الراحة والدعة والسكينة ، دار الأَخيار والخَيْر الصفو الذى لا يكدره أى شىء ، دار كلها بشر وسرور وأمن وابتهاج لا يسمع أَهلُها فيها ، كما جاء فى سورة الواقعة (إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً) تحية يتبادلونها معبرة عن شعورهم بالأَمن والرضا وطمأنينة القلب ، ويتبادلها معهم الملائكة كما قال تعالى فى سورة الرعد : (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) . ويتجلَّى لهم ربهم تفضلا وإنعاماً إلٰهيًّا ، فينثر عليهم أزهار هذا السلام الخالد كما جاء فى سورة يٰس : (سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) . وشرح ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ ، فرفعوا رءوسهم ، فإذا الربُّ تعالى قد اطَّلع عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فذلك قوله : (سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رحِيمٍ) فينظر إليهم وينظرون إليه ، ولا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، فيبقى نوره وبركاته عليهم » . وهذا اللقاء للذات العلية فى الآخرة أشارت إليه غير آية فى القرآن كقوله تعالى فى سورة الانشقاق : (يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ) . وبهذا اللقاء وما يتضمن من رؤية الله فُسِّرت الزيادة فى آية يونس : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) . ولا ريب فى أن هذه الرؤية تعبر عن أحوال من السعادة لا يمكن تصورها فى الدنيا ، وبالمثل تجليات الذات العلية حينئذ فى نورها الذى لا يقوم له ولا يثبت بصر . ومن هنا قال بعض المتأولين إنها رؤية بالفؤاد والعقل لا بالنظر ، وأولى أن نقول إنها تجليات ومشاهدات لا يعلم كنهها وحقيقتها إلا علام الغيوب . وهى تتويج الحب المتبادل فى الدنيا بين العبد والرب الذى تردد ذكره طويلاً فى القرآن والحديث ، ولعلها نفس الرضوان الذى وعد الله به المؤمنين والمؤمنات فى آية التوبة : (ومَساكِنَ طيِّبةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِن اللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . وأى فوز أعظم من تجليات الله لعباده فى الآخرة واستغراقهم فى نوره وأُنْسهم بشهوده وبهائه . وتلك الآلاء الروحية تُشْفَعُ فى الذكر الحكيم بآلاء سورة الرحمن المادية المتصلة بالثواب فى

الآخرةِ ، بل إن وراءَ الطرفين من الآلاء ما وعد الله به عِباده من نعيم مادىّ وروحىّ لم يسألوه ولم تبلغه أمانيهم كما قال فى سورة قٓ : (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مزِيدٌ) أى من ضروب النعيم مما لم يخطر لأهل الجنة على بال ولا حلموا به فى يوم من الأيام . وإن من فاته أن يُعِدَّ نفسه إعدادًا حسناً لهذا النعيم الخالد الذى لا يحيط به وصف لينبغى أن يحثو على رأسه التراب بيديه حسرةً وندماً على ما فرَّط فى جَنْب الله . تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام .

obeikandl.com